١٠٠٠ كتاب

تاريخ بولبا

تأليف

نيقولا جوجول

ترجمه

محمود فتحي عمر

راجعه

عبد العزيز عتيق

بإشراف إدارة الثقافة العامة

بوزارة التربية والتعليم بمصر

** معرفتي **

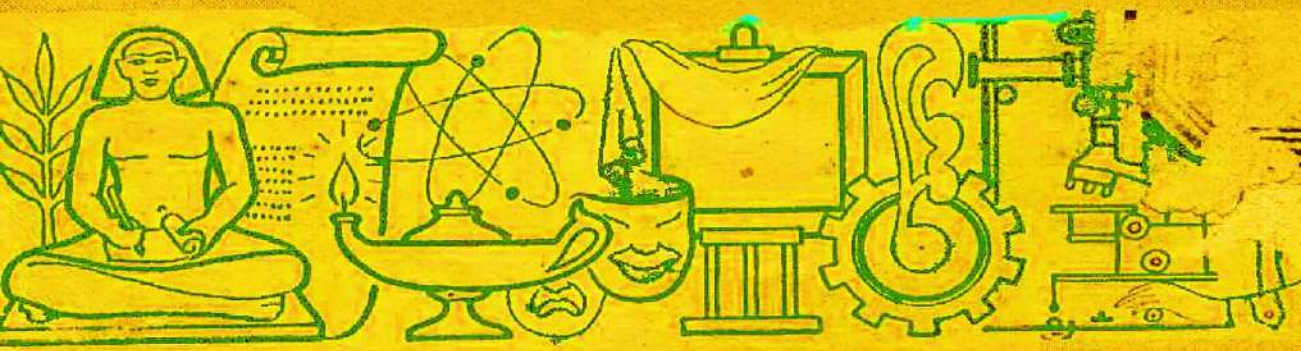

نشرته مكتبة النهضة المصرية

الألف كتاب

تاراس بولبا

بطل الحرية في أوكرانيا الروسية

(٦٢)

باشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

ترجمة حياة المؤلف

جوجـــول

ولد نيكولاى ڤاسيلڤتش جوجول فى ٣١ مارس عام ١٨٠٩ ببلدة سوروشنتسكى من ولاية بولتافا من أسرة أوكرانية قوزاقية .

بدأ حياته كاتباً فى جريدة اسمها النجمة ، ثم انتقل إلى مدينة بطرسبرج حيث اختلط بالأوساط الأدبية وتعرف بالأديب الروسى الـكبير بوشكين عام ١٨٣١ ، وعين أســتاذاً للتاريخ فى جامعة بطرسبرج . واستقال من الجامعة ، وبدأ فى كتابة القصص فألف قصة « تاراس بولبا » التى نقدمها فى هذا الـكتاب وهى من أعظم ما كتب عن حياة القوزاق ، وقد ترجمها إلى الإنجليزية جورج تولستوى عام ١٨٦٠ . كما كتب قصة « المفتش العام » وتعتبر من أعظم القصص الـكوميدية فى الأدب الروسى .

سافر بعد ذلك إلى إيطاليا حيث بقى فيها اثنتى عشرة سنة كتب فيها قصصاً عديدة من أشهرها « قصــة العبيد » أو « الأرواح الميتة » عام ١٨٤٢ ، « وقصــة الزواج » و « قطعاً مختارة من مراسلات إلى الأصدقاء .

وقد اتهم على أثر نشر قصــته الأخيرة بأنه يعمل على تزييف الديانة المسيحية لصالح الحـكام . وقد أثر فيه هــذا الاتهام كثيراً فغرق فى آلام نفسية قضت عليه فى زهرة العمر ، ومات فى ٢١ فبراير عام ١٨٥٢ .

ومن أهم مؤلفاته أيضاً « المهذبون فى العالم القديم » ، « الراء » .

ويعتبر جوجول من فحول الـكتاب الروس فى القرن التاسع عشر .

محمود فتحى عمر

الألف كتاب (٦٢)

تاراس بولبا

بطل الحرية في أوكرانيا الروسية

تأليف

نيقولاي جوجول

ترجمة

محمود فتحي عمر

وكيل المدير العام للمعاشات
وزارة المالية

مراجعة

عبد العزيز عتيق

المدير المساعد
لإدارة الثقافة العامة

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع محمد إبراهيم بالفجالة

هذه ترجمة لـكتاب :

TARAS BULBA

By

N. GOGOL

الناشر :

Foreign Languages Publishing House

Moscow

مقدمة الكتاب

هذه قصة من قصص البطولة دبجتها يد نيقولا ڤاسيليڤتش جوجول (١٨٠٩ — ١٨٥٢) واستغرقت كتابتها وقتاً أناف على التسع سنوات (١٨٣٣ — ١٨٤٢) وإن تكن تخللتها فترات انقطاع .

ففى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر هب الشعب الأوكرانى ينافح ويكافح من أجل حريته واستقلاله وألهبت الأحداث شعور الوطنى الغيور الممتلئ حماساً لبلاده : الكاتب الكبير جوجول وكان قارئاً مولعاً بسجلات التاريخ المدون فيها أحداث تلك الحقبة وكان شغوفاً بالاستماع إلى القصص الأوكرانى والأغانى الشعبية التاريخية .

كتب جوجول يقول : « إن الأغانى هى مبعث سرورى ، هى حياتى ، كم أحبها ! » وقال : « إن كل أغنية هى قطعة من التاريخ الشعبى الحى الممتلىء بالروح ، المزدان بشتى الألوان ، وإنها تميط اللثام عن حياة شعب بأسره ، وإنها لا تقدر بثمن بالنسبة للكاتب الذى يحرص على أن يستشف ويستكنه روح أى عصر من العصور الخوالى » .

وإن الكتابات التاريخية والقصص والأناشيد الشعبية والأغانى كل أولئك قد عاونت جوجول فى رسم صورة واقعية تمثل حياة الشعب الأوكرانى ، وكفاحه الباسل ، الذى ازداد حدة وشدة ولا سيما بعد عام ١٥٦٩ .

ففى ذلك العام ، وبسبب خيانة حدثت فى مدينة لوبلن ، أصبحت أوكرانيا جزءاً من بولندة ، واستولى أقطاب البولنديين على الممتلكات الشاسعة من الأراضى الأوكرانية واستغلوا الفلاحين أسوأ استغلال فى غير شفقة أو رحمة : وفرضوا تقاليدهم وعاداتهم وألغوا رسمياً اللغة الأوكرانية وطمسوا معالم ثقافتهم محاولين استعباد الشعب روحانياً وفصله عن إخوانه الروس وبذلك يتسنى سلب استقلال شعب أوكرانيا .

وصدر فى برست قانون الاتحاد الكنائسى عام ١٥٩٦ ، فأضيف الاضطهاد الدينى إلى قائمة الاستعباد الاقتصادى والسياسى والقومى . وفرض القساوسة والأقطاب البولنديون قسراً واقتداراً المذهب الكاثوليكى وسيادة الكنيسة البابوية ونكلوا واضطهدوا من أطلقوا عليهم « الهراطقة » من أتباع الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية .

ولم ينجح كل ذلك ، ولم يجد فتيلا ، بل قابله الأوكرانيون المستعبدون بمقاومة عنيفة وثورة عارمة .

وتاريخ هذا الكفاح يدين بشىء غير قليل — بمعنى مجازى —

إلى قوزاق منطقة الستش Setch الزابورجية وهم جماعة عسكرية تألفت من طائفتى الرقيق الذين فروا ، ومن أسيادهم الأحرار الذين وفدوا على الستش مؤملين الخلاص من ربقة الاضطهاد القومى والاجتماعى .

ومضت عشرات السنين وقوزاق زابورجى يساهمون فى الملاحم من أجل تحرير بلادهم ، وكانوا مثار فزع للأتراك والتتر والأشراف البولنديين .

وشخصية تاراس بولبا من أبناء القوزاق الزابورجيين هى أنموذج يمثل الشعب الأوكرانى التواق للحرية . هذه الشخصية التى تنعكس عليها آمال وأمانى الشعب الأوكرانى ، الذى كان يداعب خياله حلم اتحاده مع إخوانه فى الدم أبناء الشعب الروسى الذى ظل محافظاً على كيانه الدولى .

وقد نظر القوزاقيون كما نظر تاراس بولبا إلى هذا الاتحاد ، باعتباره الوسيلة الوحيدة لحفظ مقومات قوميتهم ، ومن ثم كانت القيمة التاريخية الموضوعية لقصة جوجول .

إن ما اشتملت عليه هذه القصة من رسالة مثالية عميقة ، ومن شخصيات صادقة ، ومن تصوير جوجول الرائع لحياة الشعب — إن ذلك كله كفيل بأن يضمن الخلود للملحمة جوجول الحماسية .

إهـــداء

هذه قصـة من القصص الرومى ... موضوعها رجل .
قتل ولده لأنه خان وطنه ...
وضحى بولده الآخر فى سبيل مجد بلاده ... ورأى بعينه عذابه
ثم مصرعه على أيدى البغاة الظالمين .
وقتله أعداؤه أخيراً ... ولـكن بعد أن أثار فى بلاده روحا
من الإباء الوطنى والعزة القومية .

* * *

هذه قصة من قصص البطولة

أهديهـا

إلى شهداء مصر والمجاهدين من أبنائها

بعـــد

أن رحل آخر جندى أجنبى عن بلادنا

محمود فتحى عمر

الفصل الأول

حسنا استدر يا ولدى ! ما أشبهك بالزوال الذى يُنصب فى الحقول لإخافة الطيور ! أى رداء طويل من أردية القساوسة ترتدى ؟ أذلك هو زى الأكاديمية ؟

بمثل هذه العبارات حيا بولبا العجوز ولديه العائدين بعد أن أتما طلب العلم فى معهد كييف ، عندما ترجل كل منهما من على صهوة جواده . كانا فتيين قويي البنية وقد بدا عليهما حياء الطلاب الجامعيين ، كما لاح على وجهيهما الممتلئين صحة وعافية أول مظاهر الرجولة وإن كانت شفرة الحلاق لم تكن قد مستهما بعد .

لقد خيب أملهما كثيراً تلك التحية الأبوية ووقفا صامتين وعيونهما عالقة بالأرض .

ثم استمر بولبا يقول : « قفا . . . وخليانى أرا كما جيداً . . ماذا ؟ أتلبسان معاطف طويلة ؟ يالها من معاطف ! ! إن العالم لم ير أبداً لها مثيلا من قبل . . . ليجر أحدكما قليلا . . وددت لو أراك لا تتعثر فى تلك الثياب فتهوى على الأرض » .

وأخيراً قال الولد الأكبر : « والدى . لا تسخر منا . . . لا تستهزئ بنا » .

فقاطعه أبوه قائلا : « انظر . . كيف يتعالى . . . ولماذا لا أضحك ساخراً ؟ » .

فقال الابن : لأنك إذا سخرت منى فإنى لا أتورع والله عن ضربك على الرغم من كونك والدى » . فصاح تاراس بولبا : ماذا يابن الشيطان ؟ تضرب أباك أنت . . . » قال ذلك ثم عاد إلى الوراء بضع خطوات مشدوهاً ولكن الابن استمر يقول : « وماذا علىّ لو كنت أبى ؟ إنى لن أسمح لأحد أن يهينني » فقال بولبا : « وبأى طريقة تريد أن تتشاجر معى ؟ أتلاكمنى ؟ » وأسرع الابن قائلا : « بأى طريقة تريد . . » . قال بولبا : «حسناً . فلنتلاكم إذن» ثم بدأ يشمر عن أكمامه ويقول فى الوقت نفسه : « سأرى عن طريق لكماتك أى نوع من الرجال أنت » .

وهكذا انقلب اللقاء من التحيات العطرات إلى لكمات يتبادلها الأب والابن على الأضلع والبطن والصدر أحياناً ثم يرتد كل منهما عن الآخر لحظة ثم يعود فيهجم أحدهما على الآخر .

وكانت الأم الرؤوم النحيلة الشاحبة الوجه تقف بالباب لم تحظ بعد بعناق ولديها العزيزين بعد هذا الفراق الطويل . . . صرخت قائلة : « انظروا أيها القوم لقد جن الرجل وذهب عقله . . . عاد الولدان إلى الأوطان بعد غيبة أكثر من عام فاستقبلهما أبوهما بالملاكمة والقتال ! !

وتوقف بولبا عن الشجار وقال : « ولماذا ؟ إنه يجيد

القتال . . . تالله إنه يحسن القتال » واستمر يقول وهو ينفض ملابسه : « إنه يحسنه إلى الدرجة التى كان من الصواب ألا أقاتله أبداً . . . سوف يكون من خيرة رجال القوزاق . . . حسنا يابنى . . . مرحباً بك . . . يمكنك أن تمنح أباك قبلة . . . » . وتعانق الأب والابن وكلاهما يقبل الآخر .

« هذه هى الطريقة الحقة يابنى ! أصفع كل إنسان كما صفعتنى لا تضعف أمام أحد . . ولكن قل لى : إن هندامك مضحك . ما هذا الحبل المتدلى هنا ؟ واتجه إلى الأخ الأصغر قائلا : « وأنت أيها الأبله لماذا تقف مكانك ويداك متدليتان فى جمود . . تعالى إلى يابن كلب الصيد . . . ألا تضربنى ضربة بعصاك ؟ »

وصاحت الأم وهى تحتضن وليدها الصغير : « أهذا كل ما تفكر فيه ؟ من سمع أن أبا يتشاجر مع أبنائه ؟ كأنما لا شىء يستطيع أن يفعله خيرا من هذا ... لقد جاء الولد من غربة بعيدة ... إنه منهك ... كان ينبغى أن يستريح وأن يأكل شيئاً وأنت تريده أن يقاتل » .

وأجابها بولبا : « إنك ضعيف كالنساء ... لا تصغ إليها يا بنى فإنها امرأة لا تفقه شيئاً ... أتريد أن تكون ضعيفاً مدللا طوال حياتك ؟ إن مجالك فى الحياة ينحصر فى ميدان فسيح وجواد كريم ... تلك هى الحياة التى ستعيشها ... انظر إلى هذا

السيف المقوس ... أعنى أمك ! أما ما حشووا به ذهنك فى الجامعة فكله لغو ... فالأكاديمية وكل كتبك وكتب الأطفال والفلسفة وغيرها مما لا يعلم غير الشيطان ماهى إلا سفسطة لا تستحق منى إلا أن أبصق عليها جميعاً »

وهنا تفوه بولبا بكلمة لا يليق ذكرها فى كتاب كما نعيذ عين القراء من الوقوع عليها واستمر بولبا يقول : « أرى أن تذهب فى الأسبوع القادم إلى زابورجى ... حيث تستطيع أن تتعلم ما أنت فى حاجة إليه ... هناك مدرسة ستجد فيها أناساً يفهمون الحياة »

وعندئذ قاطعته الأم الهزيلة العجوز والدموع تترقرق فى عينيها :

« أيبقيان معنا أسبوعاً واحداً ؟! إن المسكينين لن يجدا متسعاً من الوقت للاحتفال بعودتهما ... لن يجدا وقتاً يعرفان فيه بيتهما ، ولن أجد أنا الوقت الكافى لأمتع عينىّ بهما ! »

قال بولبا : « ألا لعنة الله على حنانك أيتها المرأة العجوز ... إن القوزاقىّ لم يخلق ليعيش بين النساء ... إنك تتمنين أن تخفى ولديك تحت ردائك وأن ترقدى عليهما كما ترقد الدجاجة على بيضها ... اذهبى ... اذهبى الآن وضعى كل ما عندك على المائدة . ما بنا من حاجة إلى حلواك وكعكك المسكر وفطائرك ... ولكن

ضمى رأساً من الخراف أو الماعز ... ضمى شراب العسل المخمر من أربعين عاماً ... نعم وكثيراً من شراب الفودكا ... لا تضمى معها زبيباً أو خلافه ... المهم أن تكون ڤودكا فائرة نقية ذات زبد تهز رؤوسنا هزاً عنيفاً .

واقتاد بولبا ولديه إلى أحسن غرفة بالمنزل وما أن دخلا حتى أسرع بالخروج منها خادمتان تتقلدان عقوداً حمراء كانتا تقومان بتنظيم البيت . . . قد يكون سبب خروجهما هو الفزع الذى ملأ قلبيهما عند رؤية السيدين الصغيرين المعروفة صرامتها مع كافة الناس وقد يكون التمسك بالتقاليد النسائية التى تجعل المرأة تجفل عند رؤيتها للرجل ثم تخفى بكمها وجهها الذى تعلوه حمرة الخجل .

وكانت الغرفة مؤثثة بما يناسب ذوق ذلك العصر . هذا العصر الذى عاش فحسب فى الأغانى وفى قصص الشعب القديمة التى لم يعد يتغنى بها فى أوكرانيا المغنون الضريرون المسنون ذوو اللحى الكثة ممن اعتادوا أن ينشدوا أغانيهم على توقيع « البندورا » بينما تحوطهم الجماهير من الشعب الريفى على النظام السائد فى هذه العهود القاسية الحربية والتى كان يحارب فيها الأوكرانيون حروبهم الأولى ضد وحدة الكنيسة اليونانية مع البابوية .

وكانت حوائط الغرفة والأرضية والسقف تغطيها طبقة رقيقة من الجبس والطين الملون وكانت السيوف وسياط الركوب

وحبالات الطير والأسماك والبنادق وأبواق الصيد الرائعة والحبال المربوطة بشرائط من الذهب تتدلى من الحوائط وكانت نوافذ الغرفة ضيقة معتمة مستديرة كالتى نراها الآن فى الكنائس الصغيرة والتى لا يمكن النظر خلالها إلا بعد رفع إطار النافذة . وكانت تحوط النوافذ والأبواب شرائط حمراء أما الأرفف وفى الجنبات فقد صفت فيها الأباريق والكؤوس والأقداح الموشاة بالذهب على اختلاف الأذواق الفنية من صنع ڤينيسيا وتركيا وبلاد الشركس . وقد اقتناها « بولبا » بشتى الطرق عن آخرين كالمألوف فى تلك الأيام المليئة بالمغامرات . وكانت المقاعد من خشب السرو تملأ الغرفة وكذلك المائدة الفخمة فى الركن الأمامى تحت الأيقونة أما الموقد فكان بارزاً ذا شقوق ومطلياً بالمينا ويفصله عن الحائط بعض الحواجز .

ولم يكن فى كل ذلك ما يلفت نظر الفنيين فقد ألفا كل عام أن يمضيا الأجازة بين جنبات هذا المنزل . . . نعم لقد كانا يسيران فى أنحائه فلم يكن لديهما جواد يركبانه ولم يكن من المألوف وقتئذ أن يعتطى طلبة الجامعة صهوة الجياد . . نعم لم يكن يملكون شيئاً إلا خصائل الشعر المدلاة من رؤوسهم علامة على الرجولة ، وكانت هذه الخصائل حقاً لكل قوزاق شاكى السلاح أن يبرزها .

ولم يكن بولبا قد منحهما جوادين صغيرين من جياده إلا بعد أن تخرجا من الجامعة .

دعا بولبا تكريماً لعودة ولديه كل الأجناد وكل ضباط الفرق الذين تصادف عودتهم للوطن وكان كلما اجتمع اثنان منهم مع زميله القديم الكابتن « ديمترو توفكاش » يقدم على الفور ولديه لهم قائلا : انظروا أى صبيين هذين ! سأبعث بهما إلى الجبهة عما قريب . وكان الضيوف يهنئون بولبا والشابين قائلين أنهما يحسنان صنعاً فليس ثمة مدرسة لشاب حدث أفضل من ميدان « زابورجيان ستش Zaporozhian Setch » .

وأخذ بولبا يقول : حسنا إخوانى الضباط خذوا مجلسكم من المائدة حيث رغبتم ، أما أنتما يا ولدىّ فلنبدأ أولا بشرب بعض القودكا ، بارككما العناية . هذه الكأس فى صحتكم يا ولدىّ . أنت يا أوستاب وأنت يا أندريه منحكما الله الحظ والتوفيق فى الحرب حتى تقهرا كل الكافرين من الأتراك والتتر والبولونيين أيضاً إذا بدءوا أى شىء ضد عقيدتنا . حسناً ارفعا كأسيكما . . أليست القودكا جيدة . . ما هو اسمها باللاتينى . . ها ها ها . . . إن اللاتينيين كانوا أغبياء يا ولدىّ . . . إنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً اسمه الفودكا . . . ما اسم ذلك الشخص الذى كتب الشعر اللاتينى . . . إننى لست عالماً كبيراً ولهذا فلست متأكداً . . . هل كان اسمه هوراس ؟

أجاب الابن الأكبر أوستاب بعد تفكير : « أظن أنه هو » وعلق بولبا على إجابته قائلا . « هذا الكلب العجوز يعلم كل شىء

ومع ذلك فإنه يتظاهر بأنه لا يعلم شيئاً » واستمر تاراس قائلا : لا أظن أن عميدكم قد أذن لكم بجرعة واحدة من القودكا ... اعترفا الآن ألم يضربكما بأغصان الكريز الغضة على ظهركما ؟ ... ألم يكن نصيب اجتهادكما هو الضرب بالسياط ... ليس فى أيام السبت فقط ... ولكن فى أيام الأربعاء والخميس أيضاً ... ؟

وأجاب أوستاب فى برود : « لافائدة من الحديث عن الماضى ... ما فات مات »

أما أندريه فقال : « فليحاول أى شخص ذلك الآن ... بل دع أى رجل يلمسنى ... لأرينّ أى تترى يقع عليه بصرى أى نوع من السيوف هو سيف القوزاق ؟

وما أن سمع بولبا ذلك حتى قال : يا الله ... لقد أحسنت ... لقد أحسنت القول ... ما دامت الأمور قد بلغت هذا الحد فإننى ذاهب معكما أيضاً ... نعم والله ... علام أبق هنا ؟ ... لعن الله الشيطان ... أأبقى لأبذر حب الحنطة السوداء وأحرس البيت وأرعى الغنم والخنازير وأرتدى بلباس زوجتى ؟ ... فليأخذها الطاعون ... أنا من أبناء القوزاق ... ما بى حاجة لإحداها ... ماذا لو أن حرباً لا تقوم الآن ؟ على أى حال سأذهب معكم إلى « زابورجى » أفرح وأمرح ... والله لأفعلن ... »

وأخذ الحماس من بولبا العجوز شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ فيه حد الذروة انتصب واقفاً على المنضدة فى وقفة مهيبة وضرب

الأرض بقدميه وقال : سنذهب غداً ... ولماذا نؤجلها ؟ أعدو ننتظره هنا ؟ ... لماذا نبقى فى هذا الكوخ ؟ ... ماذا تعنى لنا هذه الأشياء ؟ ... ماذا نريد من هذه الآنية ؟ ... وأخذ يهشم الأباريق والقنانى ويقذف بها إلى الأرض .

أما المرأة العجوز التى ألفت طرائق زوجها فقد ظلت جالسة ترقبه فى أسى وحزن . لم تجرؤ أن تتفوه بكلمة ولما سمعت قراره الذى طالما توجست خيفة منه لم تملك حبس دموعها وأخذت ترنو إلى ولديها اللذين قدر لها أن تفارقهما . وبدا اليأس الصامت فى ارتعاش عينيها وفى شفتيها المزمومتين بطريقة تجل عن الوصف .

وأخذ بولبا مظهراً عنيفاً مخيفاً . كان من تلك الشخصيات التى ظهرت أول الأمر — فى سنى القرن الخامس عشر المتجهمة — فى ركن غير مستقر من القارة الأوربية عند ما كان الجزء الجنوبى من روسيا تسوده الفطرة . هجره أمراؤه وأصبح بلقعا خرابا التهمته النيران على أيدى المغول النهابين فى غزواتهم التى لا تقاوم ، عندما أخذ الناس يتفرقون بعد سلب منازلهم وأوطانهم ، عندما عاش الناس على رماد المنازل وسط أعداء أشداء وأخطار دائمة ... وقد أخذوا يتعودون على مقابلتهم وجهاً لوجه ونسوا شيئاً اسمه الخوف . ألهبت الحرب روح (السلاف) التى ظلت قرونا من الزمان وادعة مطمئنة وأنبتت من أبناء القوزاق قوماً أحراراً عرابيد كأبناء الروس . وعلى شواطئ النهر ... وقوارب التعدية وفى كل بقعة

من بقاع النهر كانت الأرض مملوءة بالقوزاق لا يعلم عددهم إلا الله .

وعندما سأل السلطان عن تعدادهم أجاب زملاؤهم الصناديد — وحسناً ما أجابوا — : من ذا الذى يعلم ؟ إنا منتشرون فوق السهل القحل وفوق كل تل ستجد واحداً من القوزاق . وكان هذا مظهراً واضحاً للقوة الروسية قُدّت من صدر الشعب كما يقدّ الحجر الصلد بقوة من قسوة البأساء .

وبدلا من المدائن العريقة والقرى المكتظة برجال الصيد والمعجبين ، بدلا من صغار الأمراء يتحاربون ويقايضون مدائنهم فيما بينهم ، بدلا من كل ذلك نهض أقوام أشداء وأجناد مجربون يربطهم الخطر المشترك والبغضاء الموحدة ضد الأمراء الغزاة الكافرين . وكما علمنا من بطون التاريخ كان لكفاحهم المستمر وروحهم المقدامة الوثابة الفضل فى إنقاذ أوروبا من الغزو الوحشى الذى هدد باكتساحها .

ولقد قدّر ملوك بولندا هذه الصفات فى القوزاق ومزايا الصفات الحربية فيهم وطريقة حياتهم المتيقظة . هؤلاء الملوك الذين أصبحوا سادة تلك البقاع الشاسعة برغم ضعفهم وبعدهم بدلا من الأمراء الذين ورثوها دون عناء . . . لقد أطروهم وشجعوا طرائقهم وفى ظل حكمهم من بعيد جعل رجال الصف المختارين من بين القوزاق يحوّلون جالياتهم وآحادهم إلى ألوية ومناطق عسكرية ولم يكن هذا جيشاً نظامياً قائماً ، لا أثر لذلك البتة ، ولكن

فى حالة قيام حرب لم يكن يستغرق أكثر من ثمانية أيام لإعداد الرجال ممتطين جيادهم شاكى السلاح من قمة الرأس إلى أخمص القدم مستعدين أن يخدموا من أجل دينار واحد (دوقات) من يد الملك . وفى غضون أسبوعين يتجمع هذا الجيش كما لا يمكن أن يتجمع جيش نظامى من قبل .

فإذا ما انتهى القتال عاد المحارب إلى المزرعة أو المرعى أو إلى قوارب نهر دنيبر وأخذ نفسه بصيد الأسماك أو التجارة أو تخمير الجعة ويعود مرة أخرى قوزاقياً حراً طليقاً .

ولقد أعجب بكفايتهم الفريدة معاصروهم الأجانب فلم تكن ثمة حرفة لا يعرفها ابن القوزاق . . يمكنه أن يخرج النبيذ ويصنع العربة ويطحن الدقيق ويتقن صناعة الحديد والأقفال وفوق ذلك كله يمكنه أن يطرب ويمرح بأحسن ما يكون المرح ، يمكنه أن يشرب ويتلذذ وكما لا يستطيع أحد سوى أبناء الروس ، كل ذلك بل وأكثر يستطيعه ابن القوزاق .

وعلاوة على القوزاق المقيدين فى السجلات والذين كان عليهم الالتحاق بالجيش فى حالة قيام حرب ، فإن الأجناد من الفرسان المتطوعين كان يمكن حشدهم فى حالة الحاجة القصوى ... ما على المنادين إلا أن يجولوا جولة فى الأسواق المحلية والميادين بالقرى والأمصار وأن ينادوا بأعلى صوت وقوفاً من فوق عربة : إيه يا مخمرى الجعة وصانعى النبيذ ، انفضوا أيديكم من تخمير الجعة ،

ومن تلكئكم على حافة المواقد ، ومن تغذية الذباب بالجيفة الدسمة . تعالوا واكسبوا لأنفسكم ذكر الفروسية والمجد ، وأنتم أيها الحارثون يا من تبذرون حَبَّ الحنطة ، يا رعاة الغنم ، يا من تغرمون بالنساء . انفضوا أيديكم من خلف المحراث ومن تلطيخ أحذيتكم فى الوحل . انفضوا من السير وراء النساء ولا تضيعوا قوى الفروسية فيكم . لقد آن الأوان أن تكتسبوا للقوزاق مجداً .

وكأنما كانت هذه الكلمات شرراً يسقط على يابس الحطب ، فيكسر الحارث محراثه ويلقى صانع النبيذ بالقنانى ويهشم البراميل المليئة بمخمر الجعة ، ويقذف الصانع بأدوات حرفته والتاجر ببضائع متجره إلى الشيطان ويحطم الجميع الآنية والقدر ويركب الجميع خيلهم وبالجملة يبدو الخلق الروسى فى أجل وأعظم مظاهره .

كان تاراس واحداً من أولئك البكباشية الضباط القدامى الأصلاء ، ولد وفيه روح مكافحة لا تهمد ، وكان معروفاً بخشونة طباعه واستقامة خلقه ... وفى تلك الأزمان كانت الروح البولونية يبدو أثرها وتفعل أفاعيلها فى طبقة النبلاء من الروس .

وأخذ كثير من النبلاء بطباع البولونيين يقتنون أسباب الترف ويحيطون أنفسهم بحاشية فخمة يطلعون للصيد مع بزاتهم وصياديهم ويقيمون الولائم ويكونون بلاطاً حولهم . وكانت كل هذه الطباع تخالف ماطبع عليه ذوق بولبا فقد كان يحب بساطة الحياة

التى يعيشها القوزاق ويختلف عن زملائه الذين يميلون إلى حزب وارسو ، وكان يندد بهم قائلا إنهم محظيو السادة اللوردات البولونيين ... دفعته روحه التى لا تكل ولا تمل أن يفرض نفسه نفسه حامياً شرعياً للمذهب الأرثودكسى ، فكان يركب جواده ويقصد من تلقاء نفسه إلى أية قرية تشكو من ظلم المؤجرين ، أو من ضريبة المدافن الجديدة ، فيفرض العدالة يعاونه فى ذلك رجال القوزاق ... لقد وضع القاعدة التى تقول إن السيف يستل من غمده فى حالات ثلاث : إذا لم يقم جباة الضرائب البولونيون بأداء الاحترام اللازم لكبار القوزاقيين ويقفوا فى حضرتهم عراة الرءوس ، وإذا امتهنت العقيدة الأرثودكسية أو انتهكت حرمة تقليد موروث ، وأخيراً إذا كان الأعداء من المسلمين أو الأتراك فإن إشهار السلاح فى وجوههم يعتبر عملا مشروعاً من أجل مجد المسيحية .

لقد كان يتلذذ بفكرة ظهوره هو وبنوه بين أقوام الستش Setch قبل الأوان ليقول : أى شباب رائع أحضرت لكم .

وكان يتلذذ بفكرة تقديمهم لكل المحاربين القدامى والمجربين من زملائه لينعم برؤيتهم يبلون أول بلاء فى فنون الحرب ويلهون ويشربون لأنه كان يعتبر ذلك من صفات الفروسية الرئيسية .

كان يريد أن يسافر ولداه وحدهما أول الأمر ولكن مظهرهما الغض وقوامهما الفارع وجمال الرجولة الكاملة فيهما قد ألهب

روح الفروسية العسكرية فيه فما لبث أن قرر أن يصطحبهم فى الغد ... لقد أملت إرادته العنيدة هـذا القرار ... وبدأ ينشغل بإصدار الأوامر لاختيار الجياد والسروج المزركشة التى سيركبها ولداه الصغيران وذهب ينقب فى الاسطبلات والمستودعات ليختار الخدم الذين سيرافقونهم منذ الغد .

منح إزول توفـكاش سلطته وأصدر الأوامر المشددة بقيادة الفيلق إلى الستش Setch حين بعث إليهما . . . لم يغب عنه شىء رغم أنه كان ثملا ما تزال الفودكا تملأ رأسه ... أمر بأن تغسل الخيل وتملأ المزاود بأجود أنواع القمح ... وعندما انتهى من ذلك كان التعب قد ألمّ به مما بذله من مجهود .

حسناً يا ولدىّ ، ينبغى علينا الآن أن ننام ، وفى غد تنفذ مشيئة الله ... لن نضايقك فى الفراش أيتها الزوجة العجوز ... سننام فى العراء .

أقبل الليل فإذا ببولبا الذى اعتاد النوم الباكر يلقى بنفسه على بساط صغير ويغطى جسده بمعطف طويل من صوف الغنم ... كان الهواء فى تلك الليلة عليلا ... وكان يؤثر أن ينام فى دفء المنزل ... لـكنه سرعان أن نام وارتفع صوت غطيطه ... وأخذ كل من فى الفناء يحذو حذوه ... وارتفعت أصوات الغطيط من شتى الجنبات ... كان أول من تملـكه النعاس الحارس ، فقد أفرط فى الشراب عن الآخرين ، احتفاء بعودة السيدين الشابين الصغيرين .

أما الأم المسكينة فقد ظلت مستيقظة وحدها وانحنت على رأسي ولديها وهما راقدان جنباً إلى جنب فبدأت تعبث بخصائل شعرهما المتشابك فى غير عناية وتندبه بدموعها . وأخذت تتفرس فيهما وكانت روحها فى عينيها ... كانت كل مشاعرها بل كل كيانها متجها إليهما ومع ذلك لم تشبع عينيها ، لقد أرضعتهما من ثديها ودللتهما وربتهما وهاهى تراهما ولكن لهنيهة واحدة ، وأخذت تبكى وتنتحب وتقول : « يا ولدىّ العزيزين ماذا أنتما صائران إليه ؟ أى قدر مخبأ ينتظركما ؟ » .

كانت الدموع تترقرق فى عينيها وتنحدر بين تجاعيد وجهها التى غيرت جمال وجهها ... كانت حقاً تعيسة ، ككل النساء فى تلك الأيام القاسية ، عاشت لحظة قصيرة من حياتها للحب ، فى أول فورة الشباب ، ثم نسيها حبيبها الصارم من أجل حسامه وإخوانه وشرابه ، لا تراه بعد غيبة عام إلا يومين أو ثلاثا ، ثم تعود لا تسمع عنه شيئاً سنوات أخرى طوال ... وأى حياة كانت تحياها حين يمكثان سوياً ؟ .. كانت تتحمل السباب بل الصفعات أحياناً ... أما ملاطفاته فكانت نادرة ... لم تكن إلا نوعاً من العطف والإحسان ... كانت مخلوقاً غريباً وسط هذه الجماعة من الفرسان الأعزاب والذين أضفت عليهم حياة زابورچى الحرة الطليقة ألواناً قاتمة ... لقد ولى شبابها ولم تنعم بمتع الحياة وفقدت خدودها الجميلة الوردّة وصدرها الجميل نضارتهما ... لم يقبلها أحد فذوت وتجعد وجهها قبل الأوان .

إن كل حبها ، كل أحاسيسها ومشاعرها ، كل ما فى المرأة من رقة وحماس استحال إلى شعور واحد ، إلى حب الأم ... لو حوّمت على ولديها كما يفعل البازى فى السهول ، كانت كلها مترعة بالحنان والآلام . إن ولديها ، ولديها العزيزين ينتزعان منها ، وقد لا تراهما أبداً ... من الذى يدرى ؟ ربما فصل التتر رأسيهما عن جسدهما فى أول معركة ولن تعلم أين يرقد جسداهما المنسيان ، وربما مزقتهما الطيور الجارحة كل ممزق ، ومع ذلك فقد ودت لو تهب كل ما ملكت من أجل قطرة واحدة من دمهما — دم ولديها . ثم أخذت تحدق النظر فى عيونهما التى غلبها النوم العميق ، وكانت تفكر ... آه لو يستيقظ بولبا ويؤجل السفر يوماً أو يومين ... ولكن ربما يقر قراره فى الرحيل سريعاً من جراء إسرافه فى الشراب .

ويتلألأ القمر فى كبد السماء ويملأ الساحة بالضياء وقد امتلأت بالقوزاق النائمين ونشر نوره فوق الغابة التى امتلأت بشجر الصفصاف وكان البوص الطويل يغطى السور المحيط بالساحة .

أما هى فما تزال جالسة إلى جوار ولديها العزيزين ، ما يغيبان عن عينيها لحظة واحدة ، وما تفكر فى النوم ...

ونهضت الخيل من مرابضها وقد أحست بأن الفجر وشيك الظهور ورقدت على الحشائش . . . وهذه أوراق الصفصاف

الصاعدة فى الأجواء كان لحركتها صوت أخذ يخبو رويداً رويداً نحو الغصون القريبة الدانية أما هى فقد جلست هنالك حتى أشرق الصبح ، لم يعيها الكلال وتمنت من كل قلبها لو أن الليل ظل سرمداً .

ومن وسط السهل سمع صهيل أحد الجياد وبدأت تسطع خيوط الضياء وسط السماء ...

وفجأة صحا بولبا وانتصب واقفاً وقد تذكر جيداً جميع الأوامر التى أصدرها فى الليلة السابقة ... « نعم ياولدىّ . لقد أخذتما قسطكما من النوم ، وقد حان الوقت ؛ اسقيا الخيل ، وأين الزوجة العجوز ؟ » وكان يحب أن ينعت زوجته بهذه الصفة دائماً . . . « اسرعى أيتها الزوجة العجوز ! احضرى لنا شيئاً نأكله ، فإن أمامنا طريقاً طويلا » .

أما وقد ضاع أملها الأخير ، فقد أخذت المرأة العجوز المسكينة تجرجر أذيالها فى حسرة إلى داخل الدار ... وبينما كانت تعد طعام الإفطار والدموع فى عينيها كان بولبا يلقى أوامره إليهم جميعاً ، كلهم نشاط وحركة فى الاسطبلات ، واختار بولبا بنفسه أجمل السروج المطعمة لولديه . لقد تبدل الجامعيان فجأة . فاحتذى كل منهما حذاء أحمر من الجلد المزركش الموشى كعبه بالفضة بدلا من أحذيتهما الطويلة الموحلة ، وكان سروالهما فضفاضاً مثل البحر الأسود ، وبه آلاف الطيات ، ومخروما بالخيوط الذهبية .

ومن هـذا الخيط كان يتدلى الشراريب وعلائق الحلية ، وكان لباسهم من قماش أحمر قان مشدود الرباط من الخصر بوشاح مزركش وقد وضع فيه مسدسات تركية محلاة بالنقوش ، وكانت الأسياف تحدث رنيناً عند مؤخر أقدامهم .

أما وجهاهما اللذان لم تلوحهما الشمس بعد فكانا يبدوان أرق وأجمل ما يكون ، وكان شارب كل منهما الأسود ينعكس على بشرته البيضاء النقية الزاخرة بكل مظاهر الصحة وفتوة الشباب . كانا يبدوان رائعين تحت القلنسوة المصنوعة من جلد الأغنام الأسود والمرصعة بتاج من القماش المذهب

يا للأم المسكينة ! حين رأتهما انعقد منها اللسان واغرورقت العينان .

وأخيراً قال بولبا هلم يا ولدىّ فقد أعد كل شيء فلا تضيعا وقتنا ، ولـكن ينبغى أولا كما تأمرنا التقاليد المسيحية أن نجلس قبل الرحيل . وجلس كل واحد منهم باستثناء الخدم الذين ظلوا وقوفاً بالباب إجلالا واحتراماً .

ووقف بولبا يقول « الآن باركى أولادك أيتها الأم ... وادعى الله أن يحاربوا شجعاناً وأن يدافعوا أبداً عن شرف الجراة وأن يصمدوا أبداً من أجل الإيمان بالمسيح فإن لم يفعلوا فليتهم يهلـكون ، حتى لا يبقى منهم على الأرض آثار . إذهبا إلى أمكما أيها الأولاد ، إن دعوات الأم تنقذ الانسان فى البر والبحر »

وقامت الأم واهنة مضعضعة كـكل الأمهات تعانقهما وأخذت أيقونتين صغيرتين وقلدتهما عنقا الفتيين وهى تتنهد : لتحفظكما أم الرب ، لا تنسيا أمكما يا ولدىّ وابعثا إلىّ بكلمة . ولم تقدر أن تزيد حرفاً .

وهنا قال بولبا : حسناً يا ولدىّ ، فلنرحل .

وكانت الخيل المسرّجة واقفة بالباب وقفز بولبا على «شيطانه» الذى أجفل بشدة عندما أحس بشدة وطأة الراكب على ظهره فقد كان تاراس بديناً سمينا .

وحينما رأت الأم ولديها يمتطيان ، هرولت نحو الابن الأصغر ، والذى كانت ملامحه تعبر أرق تعبير ، وأمسكت باللجام وتعلقت بالسرج لا تريم عنه فـكاكا واليأس ملء عينيها ، وهنا حملها برفق اثنان من شباب القوزاق الأشداء وقاداها إلى كوخها .

ولـكن ما كادا يجتازان الباب الرئيسى ، حتى أسرعت فى أثرهما وكانت رغم سنها المتقدمة فى سرعة الماعز البرىّ فاستوقفت الجواد بقوة خارقة وطوّقت أحد ولديها بذراعيها فى عاطفة جامحة هوجاء ، واقتيدت إلى البيت مرة أخرى بينما ابتعد الشابان الصغيران بقلوب مثقلة يحجبان الدموع أن تسيل خشية أبيهم الذى تملـكته هزة خفيفة وإن حاول أن يخفيها .

كان يوما بارداً ولـكن الحشائش فى السهل كان يعلوها وميض وكانت الطير تغرّد وتبعث أنغاما نشازاً .

وتلفت الأبناء وراءهم فرأوا قريتهم وكأنما غارت فى الأرض لا يرون منها شيئا سوى مدخنتى المنزل وأعالى الشجر الذى طالما تسلقوه كالسنجاب . وهنالك تراءت لهم الحقول البعيدة ، الحقول التى أعادت إلى الذاكرة كل ما سلف من سنى حياتهم ، منذ تدرجا على حشائشها المبلّلة بالندى إلى الوقت الذى وقف كل منهما وهو فتى من فتيان القوزاق أسمر الجبين يدلف خلالها سريعا على أرجل سريعة فتية ، وإلى هذا العمود المنصوب فوق البئر والذى ربطا فيه إلى طرفه الأعلى .

أما السهل فكان يقوم من ورائهم ، يبدو كأنه جبل يخفى عن الأنظار كل شىء وراءه .

وداعا أيتها الطفولة ، وداعا أيتها الملاعب ، وداعا لكل شىء ولكل الناس .

الفصل الثانى

وسار الفرسان الثلاثة فى صمت . كان تاراس يفكر فى الأيام الخوالى وتمر فى خياله أيام الشباب ... هذه السنين التى خلت ... هذه السنين التى يبكى عليها جميع الجراكسة . . وود لو أن حياته جميعا ردت شباباً. وأخذ يفكر مَنْ مِنْ زملاء السلاح سيلقاهم فى الستش The Setch وأخذ يعد الذين ماتوا والذين ما يزال يأمل أن يراهم على قيد الحياة . وبدت دمعة فى عينية ومالت رأسه التى امتلأت بالمشيب حزناً وكمداً .

أما ولداه فكانا يفكران فى غير هذا من الشئون ... وقبل أن نذكر فيم كانا يفكران فلنتحدث بعض الشىء عنهما ... لقد ذهبا فى سن الثانية عشرة إلى جامعة كييف وكان التقليد السائد بين أصحاب المراكز السامية فى ذلك الوقت أن يهيئوا لأبنائهم أسباب المعرفة ... كما كان ينسيهم فى غدهم ما كانوا قد تعلموه بالأمس .

وكشأن كل من أدخلوا الجامعة كانا أول العهد بهم جفاة غير مستأنسين إذ شبوا فى أحضان الفوضى لكنهم اكتسبوا خلال إقامتهم بالجامعة بعضاً من التهذيب وشيئاً من التعقل ... وأصبحا يشبهان إخوانهم الجامعيين .

أما الأكبر (أوستاب) فقد بدأ حياته بالهرب من الدراسة لكنه عاد إليها رغم أنفه وضرب فى غير رحمة وأجبر على التزام دراسته . حاول أربع مرات أن يخفى كتاب المطالعة وسط التراب لكنه أخذ دروساً قاسية فى هذه المرات الأربع وعاد إليه الكتاب وودّ لو يحاول مرة خامسة أن يخفى كتابه ولكن أباه توعدّه بأن يدخله الدير وأن يسجنه فيه عشرين عاماً . وأن لا تقع عينا ولده على زابورجى ما لم يحفظ كافة العلوم التى تدرس فى الجامعة . ومن عجب أن يكون الرجل الذى يقول ذلك هو تاراس بولبا ، هذا الرجل الذى يثور ضد العلم ، والذى نصح ولديه كما رأينا من قبل ألا يفكرا فيه أبداً ... ومنذ ذلك الحين وأوستاب مكبّ على كتبه المملة فى دأب نادر حتى أدرك من سبقوه من زملائه .

وكان التعليم فى تلك الأيام على نقيض مقتضيات الحياة العملية وكانت دقائق النحو والبلاغة والمنطق لا تماشى العصر ولا فائدة منها فى الحياة العامة فما كان الطلاب — وما أقلهم علماً ! — بقادرين على تطبيق معلوماتهم فى أى ناحية من نواحى الحياة ، بل إن الأساتذة المربين أنفسهم كانوا أكثر عجزاً من الطلاب بسبب ابتعادهم عن التجارب . وفى الوقت نفسه كان التنظيم الجامعى الذى يأخذ بروح الشعبية وكان تكوين الجماعة من شباب قوى خليقين بأن يوجها الجامعيين إلى ضروب من النشاط تختلف تماماً عن مقرراتهم وبرامجهم .

وكان سوء المعاملة وتكرار العقاب بالحرمان من الأكل وهذه الانفعالات التى تضطرم بها نفوس الأقوياء من الشبان يؤدى إلى خلق روح وثابة ازدهرت فيما بعد فى مدينة (زابورجى) .

وكان الجامعيون الجائعون ينقضون على شوارع مدينة « كييف » فكانوا مصدر خطر دائم على الأهلين فكانت البائعات فى الأسواق يخفين فطائرهن أو اللب الذى يبعنه إذا لمحن أحد الطلاب آتيا من بعيد وكان منظرهن يشبه منظر النسر الذى يخفى تحت جناحيه صغاره لحمايتهم من أى شر .

أما المشرف على الطلاب (البرنجى) فكان واجباً عليه أن يراقبهم وأن يمنعهم مما يفعلون ولكنه كان على العكس ... كان يستطيع أن يحشو جيوب سرواله الواسع الكبير بالكشك الذى يوجد فيه الباعة أنفسهم .

وكان أبناء الجامعة يؤلفون فيما بينهم عالماً آخر مستقلا ، ولم يكن يؤذن لهم بالاندماج مع الطبقات العليا المكونة من الروس النبلاء ومن البولونيين .

ولقد أمر (آدم كيزل) راعى الجامعة بإبعادهم عن المجتمعات وعدم اختلاطهم بها ووضعهم تحت رقابة شديدة ... وكانت هذه الرقابة لا داعى لها ذلك لأن العميد والأساتذة من القساوسة والمدرسين كانوا دائماً يضربون تلاميذهم بالعصى والكرابيج . وكان تابعو الأساتذة يضربون المشرفين على التلاميذ بشدة حتى

كنت ترى هؤلاء دائماً يتحسسون بأيديهم على أعجازهم لتخفيف ما أصابهم .

وكان البعض يرون ذلك شيئاً تافهاً ... كانوا يرونه أقل شدة من شرب الفودكا المختلطة بالبهارات (الفلفل) ... أما الآخرون فكانوا يهربون إلى زابورجى سأما من الضمادات التى كانوا يضعونها على جراحهم وانتهازاً لكل فرصة تسنح لهم فى كشف معالم الطريق ... وقلما كانوا يضبطون أثناء ذلك .

ومع أن (أوستاب بولبا) كان منكبا على الدوام على استذكار المنطق بل وعلوم الدين فإنه لم يفلت من العصا التى كان يضرب بها الجميع ... وقد ساعد ذلك على تنشئته شديد الشخصية صلبا ... هذه الصفات التى تميز بها القوزاق (الجراكسة) . وكان (أوستاب) معروفا بين الجميع أنه خير الزملاء ونادراً ما كان يقود زملاءه فى مغامرات السطو على البساتين والحدائق الخاصة لكنه كان ينضم إلى زملائه فى مغامرات الشجاعة ، لم يتخل فقط عن زملائه ولم تؤثر فيه العصى والسياط كى يعترف عليهم ، وكان وجهه يكفهر عندما يحاول معه الإغراء إلا إذا كان هذا الإغراء لدفعه إلى القتال . ولم يكن يدور بخلده شيئا إلا القتال ، وكان وسط أقرانه وحيداً ... كان رفيقا رقيقا كأترابه ونظرائه فى ذلك العهد ، وكان يتأثر تأثراً صادقا شديداً إذا دمعت أمه ، وكان هذا هو الأمر الوحيد الذى أحزنه الآن وشغل عقله .

أما أحاسيس الأخ الأصغر أندريا فكانت أكثر نضجاً وحيوية فكان يقبل على العلم اقبال الرجل القوى الرزين . كان أكثر إبداعا من أخيه وكان أميل منه إلى الزعامة فى المغامرات والمجازفات .

وكانت سرعة بديهته فى بعض الأحيان سبباً فى نجاته من العقاب ، فى حين كان أخوه أوستاب يمقت التحايل والألاعيب ، فكان يلقى رداءه ويفترش الغبراء لا يطلب بل لا يفكر فى أن يلتمس الرحمة من أحد ، كان أندريا يتلهب شوقا وظمأ للقيام بأعمال البطولة كما كان قلبه متفتحا لمشاعر أخرى .

فعندما أناف على الثمانية عشر من العمر اشتعل فى قلبه الحنين إلى الحب والغرام وبدأت المرأة تتراءى له فى أحلامه ... كان يحلم بها غضة مكتحلة العين رقيقة بينما هو يصغى إلى المناقشات والمناظرات الفلسفية . كان يتمثلها أمامه ناهدة الصدر وضّاءةً الجبين ، ذراعها الجميل عاريا حتى الكتف وقد التصق بجسدها الجميل ثوب شفّ عن جمال مثير كثيراً ما كان يداعبه فى الأحلام لكنه حرص أن يخفى عن رفقائه انفعالات روحه العاطفية الشابة فقد كان من العار فى ذلك العصر أن يفكر القوزاق فى النساء والحب قبل أن يخوض غمرات القتال .

ولكن ندر فى السنين الأخيرة السابقة على تخرجه من الجامعة أن يتزعم الجماعات المغامرة وكان غالبا ما يجوس وحيدا

منفرداً فى الأنحاء النائية من مدينة كييف حيث توجد المساكن المنخفضة التى تخفيها عن الأعين حدائق الكراز التى تطل بسحرها على الطريق . إلا أنه جازف مرة فدخل إلى الحى الأرستقراطى — وهو فى الوقت الحاضر كييف القديمة — حيث كان يقطن أهالى أوكرانيا وبولندا من النبلاء وحيث كانت المنازل تبنى على طراز خيالى أخاذ ، وهناك وقف فاغر فاه وكادت إحدى عربات النبلاء البولونيين أن تدهمه لولا أن بادره سائق العربة ذو الشوارب المخيفة بضربة مسددة من سوطه ، وعندها هاج طالب الجامعة وماج ، وبجرأة خارقة للعادة أمسك بقبضة يديه القويتين إحدى العجلات الخلفية فتوقفت العربة عن السير ، وخشى السائق من القصاص وألهب الجياد بالسياط فأخذت تعدو أما أندريا الذى كان من حسن حظه أن يسحب يده فى الوقت المناسب فقد انطرح أرضاً وتلوث وجهه بالأوحال ، ورنت فى أذنه وقتئذ أحلى وأعذب الضحكات فصعد ببصره وإذا به يرى حسناء تطل من إحدى النوافذ ، كانت حسناء لم تقع عينه على مثلها من قبل ، كحلاء العين بيضاء ناصعة كالثلج وقد اصطبغت وجنتاها باحمرار كأنه الفجر المورّد .

وكانت تضحك من كل قلبها وزاد ضحكها من سحر جمالها ووقف هو مشدوهاً مسحورا ، يرنو إليها وكله حيرة وارتباك ، يمسح عن وجهه الطين وهو غائب الوعى ، مما جعله أكثر اتساخا

من ياترى هذه الغادة الحسناء ؟ وحرص أن يستجلى تلك المعلومات من الخدم الواقفين فى ملابسهم الفاخرة أمام البوابة الكبيرة ، وأمام جمهور حاشد من الناس تجمعوا حول أحد الموسيقيين .

وفى الليلة التالية ، وبنفس الجرأة التى يتميز بها شباب الجامعة فى كييف مرق خلال الساحة إلى الحديقة ثم تسلق شجرة انتشرت فروعها إلى سطح المنزل ، ومن هذه الشجرة وصل إلى السقف ، وشق طريقه أسفل المدخنة من توه إلى غرفة نوم فتاته الحسناء . وكانت وقتئذ واقفة فى ضوء الشموع تخلع قرطها الثمين من أذنيها .

وفزعت الغادة الحسناء أيما فزع من ظهور شخص غريب فجأة ، حتى انعقد لسانها عن النطق ، ولكنها عند ما تأكدت أن طالب الجامعة يقف أمامها غاضاً بصره ولا يكاد يتحرك من شدة أسفه وعرفت فيه الشاب الذى رأته وقد زلت قدمه بالأمس فى الطريق تملكها الضحك مرة أخرى وساعدها على ذلك أن وجه أندريا لم يكن يبعث على الخوف البته ، فقد كان رشيقاً ، ولهذا ضحكت ومزحت ما شاء لها الضحك والمزاح .

كانت الفتاة لعوبا ككل الفتيات البولنديات ، وكانت عيناها الجميلتان الصافيتان النفاذتان تنطلقان بالنظرات المسددة العامدة . ووقف طالب الجامعة فى مكانه جامداً كأنه قد أوثق ووضع فى

كيس فى الوقت الذى أخذت أبنة القائد السلافى تتجه نحوه ، وتضع أكليلها على جبينه وتعلق قرطها على شفتيه ، وتلفه بقميص من الموسلين الشفاف الموشّى والمطرز بخيوط الذهب . وأخذت تداعبه وتمازحه بروح صبيانية يتميز بها النساء البولونيات ، وقد زاد ذلك من ارتباك طالب الجامعة المسكين وحرجه فكان منظره يدعوا إلى الضحك والرثاء خاصة عندما وقف فاغر الفم يرنو إلى عينيها الساحرتين .

وأفزعها طرق بالباب ، فطلبت إليه أن يختفى تحت الفراش ، ولما اطمأنت وخلا الجو دعت وصيفتها ، إحدى أسرى التتر ، وأمرتها أن تقوده فى هدوء إلى الحديقة ومن ثم خارج الساحة . ولكن صاحبنا لم يكن هذه المرة محظوظاً فقد استيقظ الحارس وضربه على ركبتيه وأندفع الخدم يوسعونه ضرباً فى الطريق وقتاً طويلا إلى أن حملته قدماه السريعتان بعيداً إلى برّ الأمان . ومنذ ذلك الحين ، أصبح من المخاطرة أن يمر بالدار ، فقد كان عدد الخدم كبيراً .

ثم رآها مرة فى إحدى الكنائس البولندية الكاثوليكية ، ثم أبصرها مرة أخرى وألقت إليه بابتسامة ساحرة كما لو كان صديقاً قديماً ، لكنها كانت نظرة عابرة . وبعد قليل رحل أبوها القائد السلامى (كوفتو) وحل مكان البولونية الهيفاء الحوراء

وجه قبيح مكتظ باللحم كان يطل من النافذة التى كانت تطل هى منها .

وكان هذا الذى قصصناه يجول فى ذهن أندريه الآن ، وقد استرخت رأسه وتركزت عيناه على معرفة الحصان . وفى الوقت ذاته استقبلهم السهل الفضاء بأحضانه السندسية وشجره الباسق المرتفع وهم يكادون يختفون وراءه حتى لم يعد يبدو منهم سوى القلنسوات السود .

وصاح بولبا وقد أفاق من أحلامه وذكرياته قائلا : ها أنتم هناك ؟ مالكم يا ولدىّ هكذا صامتان عابسان ، اقذفا بأفكاركما إلى الشيطان ، ضعوا غلايينكما تحت أضراسكما واشعلا الثقاب ، واستحثا الخيل وأعدوا بها كالطير .

وانحنى القوزان على خيولهم وسرعان ما أختفوا وسط المراعى بل إن قلنسواتهم لم يعد يبين منها شىء ، ولم يبق سوى خيط من الحشيش الذى داسوه يدل على عدوهم السريع . وكانت الشمس قد بزغت فى سماء صافية تدفئ الوادى بحرارتها وتنيره بضوئها الشديد . فطار الغموض والقلق والأحلام من مخيله القوازق وأخذت قلوبهم ترقزق كالطير .

وكلما تكشف الوادى أمامهم كلما بدا جماله ، كان الجنوب إلى حدود البحر الأسود وكانت البقاع التى تدعى الآن (نوفوروسيا)

كلها تربة بكر خضراء لم يمسها محراث قط . كانت الحشائش هناك بكثرة كالموج من فوقه موج .

وكانت الخيل تطأ تلك الحشائش الممتدة وتكاد تختفى فيها كأنها وسط غابة من الغابات ، لا شىء فى الطبيعة أروع منها ولا أبدع ، وبدا سطح الأرض كأنه المحيط الأخضر العسجدى يقذف بما فيه من أزاهير . ومن خلال جذوع الحشائش النخيلة المستطيلة برز النوار الأزرق والقرمزى والأبلج وانتشرت نبات الرتمة الصفراء فى شكل مظلة واسعة وأينعت سنابل الحنطة فى المروج لم يزرعها إنسان ، والله وحده يعلم متى نبتت .

ومن بين الفروع النحيلة برزت الطير (السمان) تشرئب بأعناقها . وكان الجو مملوءاً بأصوات الالآف من الطير المختلفات . وبدت الصقور فى الجو كأنها توقفت عن الطيران وقد نشرت أجنحتها ومثبته أنظارها إلى الحشائش من تحتها . وبدت زرافات من الأوز البرى تنبعث أصواتها وراء الأفق ويتردد صداها كأنها آتيه من مستنقع بعيد لا يعلمه إلا الله . وظهر من بين الحشائش طير ترفرف بنظام كأنه يستحم فى خيلاء وسط تيارات الهواء . . ويظل يرتفع مختفياً فى أعالى طبقات الجو حتى لا يرى منه سوى نقط سوداء ثم تدور وتلف بجناحها وتبين فى ضياء الشمس .

أيتها السهول وأيتها المروج ما أروعك وما أبدعك ! !

لم يتوقف الركب طويلا لتناول وجبة الغذاء فقد ترجل الحرس

المكون من عشرة قوزاقيين وأفرغوا القنانى الخشبية المملوءة بشراب الفودكا واستخدموا الآنية كئوساً . ولم يأكلوا سوى الخبز أو الكعك المصنوع من القمح مغموساً باللحم ولما يحتسوا إلا كأساً واحدة ليقووا على المسير ، ذلك أن (تاراس بولبا) لم يتح قط لأحد أن يصبح مخموراً أو سكراناً أثناء الطريق . واستأنفوا السير حتى إذا أرخى الليل سدوله تغير وجه السهل وغدا هذا الفضاء مصطبغاً بشتى الألوان ألقت إليه الشمس بلهيبها قبل المغيب ثم أقبل الظلام رويداً رويداً ولون الفسق الخضرة فجعلها داكنة ، وتكاثف البخار على الأزهار وتنفس العشب عن رائحة ذكية وبعث فى أنحاء الوادى أرجاً وعبيراً . وبدت علائل من المسجد الوردى كما لو كانت قد عالجتها ريشة عبقرية تمتد تحت القبة الزرقاء .

وهنا وهناك كانت خيوط من السحب الخفيفة تسطع من شدة بياضها ، وكانت أرق النسمات تكاد تحرك أطراف الحشائش رقيقة وناعمة كموج البحر الهادئ حين يلمس شاطئه . وأخذت الموسيقى التى امتلأ بها الجو فى الصباح تتلاشى ليحل محلها غيرها فقد بدأت حيوانات السنجاب المرقطة تخرج من جحورها وتقف على ساقيها وردد الوادى صدى أصواتها وأخذت الزقزقة تعلو وتشتد بينما كان صراخ البجع يرتفع ويرن رنينا عالياً من البركة النائية .

وكان الركب يتوقف فى المناطق الفسيحة ، يختارون مكاناً يعسكرون فيه ويبقون ليلتهم ، يوقدون ناراً ويضعون فوقها القدور التى يتصاعد منها عمود مائل من البخار .

وأخذ القوزاق بعد تناول العشاء خيولهم إلى المرعى واستسلموا للرقاد مفترشين معاطفهم والنجوم تطل عليهم من عِلْ . يطن فى آذانهم صوت الهوام الزاخرة التى كانت تملأ الأجواء بطنينها وأصواتها العالية فى بهمة الليل وفى آذانهم الناعسة .

وكان إذا حدث أن استيقظ أحدهم فإنه يرى الوادى أمام ناظريه من قريب أو بعيد زاخراً بالفراشات المضيئة .

وكانت السماء تضىء فى الليل بوهج بعيد منبثق من القضباء الجافة المحترقة فى المراعى وعلى ضفاف النهر ، وكانت أسراب البجع السوداء وهى متجهة صوب الشمال يسطع عليها ضوء فضى يخالطه احمرار فكانت تبدو كأنها مناديل حمراء تطير فى وسط السماء .

لم يعترض الركب فى طريقه شيئاً ، لم تقابلهم حتى شجرة واحدة وبدا السهل الواسع كأن لا نهاية له ، جميلا وخلاء من كل شىء ، ونادراً ما كانو يلمحون القمم الزرقاء للغابات النائية والتى كان يحدها ضفاف نهر الدنيبر .

أشار مرة تاراس إلى بقعة صغيرة فى مكان ناء وقال لولديه : انظرا يا ولدى هناك رجل من التتر يعدو على جواده .

ورآهم ذلك الرجل من بعيد وكان ذا وجه صغير وشارب

وعينين ضيقتين فما أن زفر الهواء كما تزفر كلاب الصيد حتى كان قد اختفى كأنه تيس الجبل ... ذلك لأن عدد القوزاقيين كان يبلغ ثلاثة عشر رجلا .

وصاح بولبا : « أيها الفتيان هل لكم أن تلحقوا بالتترى ؟ إنى أفضل ألا تفعلوا ، فلن تلحقوه . إن جواده أسرع من الشيطان » . لكن بولبا لجأ إلى الحيلة خشية أن يكمن له العدو فقد أخذ هو وإخوانه يعدون إلى نهر صغير يسمى « تاتاركا » يصب فى الدنيبر ووثبوا فيه بخيلهم وقضهم وقضيضهم وسبحوا فى النهر مسافة طويلة ليضللوا من يريد اقتفاء أثرهم ثم عادوا فخرجوا منه واستأنفوا السير حذاء الشاطىء .

ودنوا بعد ذلك بثلاثة أيام من محلتهم المقصودة ، وفجأة اعتدل الجو وأحسوا بأن نهر الدنيبر منهم قريب وكان يتلألأ من بعيد لكنه غاب وراء الأفق فى غلالات من الظلام . . وكانت الليلة باردة وهنا نرى الدنيبر بعد أن عرقلت التيارات مجراه قد أصبحت له اليد العليا ، يسيطر بخريره كالبحر ويغمر الأرض قاصيها ودانيها ، وترتمى الجزر فى أحضانه دافئة إياه بعيدا عن مجراه ، وإذا بأمواجه لا يعترضها صخر مرتفع أو أخدود منخفض فلا تلبث أن تطفو وتغمر الأرض كلها .

وترجل الفرسان القوزاق ، ونزلوا إلى مركب أخذ يمخر النهر ثلاث ساعات حتى وصلوا إلى شواطىء جزيرة « حورفيتسا »

حيث يقيم بدو الستش « Setch » وكان جمع من الناس يتنازعون مع عمال التعدية فربط القوزاق سروج الخيل ، واتخذ تاراس مظهر الجد والعزم وشد حزامه وأمسك شاربيه فى زهو ، ونظر إبناه إلى أنفسهما من قمة الرأس إلى أخمص القدم بمزيج من شعور القلق الغامض والتأملات البهيجة والتوقع السار .

ثم ركبوا إلى ضاحية قريبة من بلاد الستش فلما دخلوها أصمّ آذانهم طرق خمسين حداداً بأزاميلهم فى خمسة وعشرين ورشة مقامة على تلك الأرض تعلوها جميعاً سقيفة من الحشائش .

وكان يجلس القرفصاء رجال أشداء مفتولو العضلات — يليّنون جلود الثيران — بأيديهم المفتولة . وجلس التجار فى خيامهم وراء أكوام من صخر الصولان والفولاذ والمفرقمات ، هنا كان أحدهم يعلق مناديله الغالية وهناك تترى يشوى قطعاً من اللحم الملفوف بالخبز .

وهذا يهودى يمد عنقه ويفرغ فى جوفه الفودكا من القنينة .

وكان أول من قابلوه رجلا من قوزاق (زابورجى) مستلقياً فى سبات عميق وسط الطريق وقد مدّ قدميه وذراعيه ولم يستطع تاراس بولبا إلا التوقف مبديا إعجابه وصرخ بولبا : ما أعظم هذا النائم ! أى شخص قد امتلأ بالرجولة . وفى الحق لقد كان صورة رجل شجاع . فقد تمدّد القوزاق كالأسد المحصور حين يفترش الطريق وقد ارتمت إلى الوراء خصلة شعره فى فخار تغطى قدما

كاملة من الأرض . وكان إزاره الفضفاض يعلوه بعض القار ، ليعلن بذلك ازدراءه للملابس القرمزية الغالية التى نسج منها .

وبعد أن ملأ عينه وأشبع روحه إعجاباً بذلك القوزاق ركب بولبا مخترقاً طريقاً ضيقاً مزدحماً بأهل الصناعات والحرف ، وكانوا مشغولين فى أعمالهم وسط متاجرهم التى كانت تزخر بأصناف عديدة من الخلق من مختلف الجنسيات فى تلك الضاحية التى كانت تشبه السوق والتى كانت تمد قبائل الستش Setch بالغذاء والكساء . فإن هؤلاء الناس لم يكونوا يعرفون سوى الصيد والقنص والمرح .

وخلّفوا الضاحية وراءهم فما لبثوا أن رأوا قليلا من بيوت القوزاق المتناثرة تنعقد فوقها الحشائش ويغطيها اللباد على الطراز التترى . وكان بعضها محوطاً بالمدافع ، ولم يكن ثمّة حواجز واقية فكانت البيوت واطئة ذات كوّات مشيدة على أعمدة خشبية قصيرة كتلك التى سبق أن رأوها فى الضاحية .

وكان السور منخفضاً غير محروس مما يحدّث النفس بالإهمال الشنيع فى الحراسة .

وكانت شرذمة من القوزاق الأشداء يتناولون طعامهم وقد وضعوا الغلايين فى أفواههم ينظرون وسط الطريق غير آبهين ولا مكترثين — ولكن ذلك لم يحرّك فيهم ساكناً .

وانفلت تاراس وولداه وسط هؤلاء القوم يحيونهم : عموا صباحاً أيها السادة ! فردّ أهل زابورجى التحية قائلين : يوم سعيد

لكم . وكانت المزارع تزخر بالجماعات البهيجة وكانت وجوههم الصارمة تتحدث عن حنكتهم فى المعارك وبلاءهم البلاء الحسن فى الكفاح وهكذا كان أهل الستش Setch .

هنا كان عرين قوم أشداء أقوياء كأنهم الأسود ، ومن هنا انبعثت الحرية وسادت الروح القوزاقية فى جميع أنحاء أوكرانيا .

ومضى الركب إلى ميدان فسيح ينعقد فيه عادة المجلس العام للقوزاق ، وكان أحد أهالى (زابورجى) يجلس فوق برميل مقلوب وقد نزع قميصه يرتق فتوقه .

وفى هذه اللحظة اعترضتهم فرقة موسيقية توسطها شاب زابورجى يرقص فاتحاً ذراعيه بينما اتخذت قلنسوته فوق رأسه وضعاً عجيباً فيه ميل شديد وكان يصرخ المرة تلو المرة : أيها الموسيقيون . أسرعوا فى نغماتكم وأنت يا (ثوما) : لا تأخذى على المسيحيين شرابهم للقودكا . وكانت ثوما الفتاة القوزاقية ذات العينين الكحلاوين تملأ الكأس لكل من يتقدم إليها .

والتفت حول الشاب الزابورجى أربعة من الرجال القدامى ، يدقون بأقدامهم على الأرض فى حماس ، يقفزون ثم يدورون حول أنفسهم كالدوامة ويكادون يسقطون فوق رؤوس الموسيقيين ، ثم تجدهم فجأة وقد عادوا إلى الرقص فى مرح ، يدقون الأرض الصلدة بأحذيتهم الموشاة بالفضة . وكانت الأرض ترسل طنيناً والهواء يرسل رنيناً من صدى صوت الأحذية المكسوة بالحديد .

وكان هناك شخص آخر يعلو صوته على الباقين يكاد يطير فرحا وكانت جدائل شعره تتمايل مع الريح وصدره المتلىء بالعضلات عار تماما ، وكان يرتدى فى هذا الشتاء الدافىء معطفا من جلود الأغنام فكان العرق يتصبب من جسده ويسيل سيلا . وأخيراً صرخ فيه « تاراس » : إخلع رداءك إنك تذوب من العرق . فأجاب الزابورجى بأعلى صوته : لا أستطيع . فقال بولبا : ولماذا ؟ فأجاب مرة أخرى : هكذا خلقت ! إنى لا أخلع ملابسى إلا لأشترى بها شراب الفودكا . . . لقد كان الفتى الشاب المشوق لا يلبس قلنسوة ، ولا يتمنطق بحزام على قفطانه ، ولا يملك منديلا مطرزاً فقد باعها جميعاً ليشرب الفودكا .

وكانت الجماهير تزداد ، ويقبل آخرون على الرقص ، ولم يكن من السهل على المشاهد ألا تلهبه رؤية هذا الرقص الطليق الحر والذى لم يشهد له العالم كله مثيلا والذى لقبه مبتدعوه العظام باسم رقصة القوزاق (قوزاتشوك) .

وقال تاراس : « وددت لو أنى لم أكن على صهوة جوادى إذن لنزلت بنفسى إلى حلبة الرقص » .

ووسط الجمع الحافل بدأ يظهر جماعة وقورة من القوزاق القدامى موضع تجلة أهالى Setch بأعمالهم المجيدة ، وقد ابيضت شعورهم وسرعان ما لمح (تاراس) حشداً من الوجوه التى يعرفها ، وكان أوستاب وأندريا لايسمعان إلا عبارات : ها أنت يا بيشرتسا

وعم صباحا يا كوزولوب ، ومن أين قدمت يا تاراس ، وكيف أتيت إلى هنا يا دولوتو وأهلا بك يا كردياجا ، وأهلا بك يا چوستى ، وأنت يا ريمن ما ظننت أنى أراك أبداً .

وأخذ تاراس على الفور يتبادل العناق والقبلات مع هؤلاء الأبطال ، الذين تجمعوا من سهول روسيا الشرقية ، يتساءلون عن أخبار كازيان ومكان بوروداڤكا وماذا من أمر كولوبيور وكيف حال بيد سيشوك ؟

وكانت الإجابات التى سمعها تاراس أن بوروداڤكا قد شنق فى مدينة تولوبان وأن كولوبيور قد سلخ جلده حيا على مقربة من مدينة كتريكرمان وأن رأس بيد سيشوك قد ملحت وأرسلت إلى مدينة استانبول .

وأخذ بولبا العجوز رأسه بين يديه يفكر ويقول بصوت خافت : ولكنهم كانوا قوزاقيين فاضلين .

الفصل الثالث

أمضى تاراس بولبا وولداه قرابة الأسبوع فى الستش Setch ، وكان أوستاب وأندريا لا يشغلان نفسيهما بالتدريب العسكرى إلا نادراً . ولم تكن مدينة ستش تتعب نفسها بالتمرينات العسكرية وتضيع وقتها فيها ، فإن شبابها قد دربتهم وأصقلتهم التجارب دون سواها فى وطيس المعارك ، وكان لديهم عديد موفور من الشباب لهذا الغرض — ولهذا ألفى القوزاق أنفسهم يسأمون دراسة الفنون الحربية فى أوقات الفراغ فيما عدا التدريب على الرماية أو فى حالات نادرة على سباق الخيل ومطاردة القنيصة البرية فى المراعى والسهول ، أما بقية أوقاتهم فكانوا يمضونه فى المرح دلالة على تحرر نفوسهم الكبيرة من كل القيود .

كان أهالى الـ Setch يبدون فى مشهد عجب ، كله لهو وشراب وأعياد تبدأ ولا تنتهى . وكان البعض يشغل نفسه بالحرفة التى يزاولها وآخرون يتجرون فى محلاتهم ، ولكن الكثرة الغالبة منهم كانت تمضى سحابة اليوم فى اللهو والعربدة إلى أن ينفذ آخر فلس فى جيوبهم وينتهى كل ما كسبوه من غنائم إلى جيوب التجار وأصحاب المطاعم .

وكان ثمة شىء يبعث البهجة والانشراح فى هذه الأعياد

الشاملة ، أنها لم تكن حشوداً للاهين بالشراب يدفنون أحزانهم فى كأس من النبيذ ، ولكنها كانت ثورة صاخبة من اللهو والمرح .

وما من فرد وطئت هناك قدماه إلا نسى متاعبه وخلفها وراء ظهره ، نسى الماضى بل بصق عليه ولعنه ، اندمج فى جرأة فى حياة طليقة وفى صحبة أقوام معربدين صاخبين كشخصه ، لا أهل لهم ولا مأوى ، ولا شىء سوى القبة الزرقاء والمرح الخالد تنشده النفوس .

وقد ولد هذا الجو نوعاً من المرح الجارف ، ما كان يمكن أن ينبثق فى جو آخر . لقد انتشرت القصص والحكايات بين جماهير القوزاق أثناء استلقائهم على الأرض وهم فى استرخاء ، وكان نوعها أخاذاً مثيراً حتى لا يمكن لهم أن يتمالكوا أنفسهم وأن يحتفظوا بجمود وجوههم ، وألا يحركوا شواربهم . . هذه الصفات التى كان يتميز بها ولا يزال يتميز بها حتى اليوم أهالى جنوب روسيا عن باقى المواطنين .

كان مرحاً ثملا معربداً ولكنه لم يكن داخل حانة مكتئبة حيث يغيب المرء عن صوابه بطريقة قبيحة زائفة .

هنا كان يجلس عصبة من رفاق المدرسة توثقت بينهم العلائق والفارق الوحيد أنهم قد استبدلوا بالمدرس وعصاه والإصغاء إلى دروسه ركوب خمسة آلاف من الخيل والتوجه بها فى غزوات ، واستبدلوا بلعب الكرة حراسة الحدود ، هذه الحدود التى كان

يمرق منها التترى فى سرعة خاطفة والتركى وقد ارتدى عمامته الخضراء . كان الفارق أنه بدلا من القوة الراغمة التى ألفت بينهم فى المدرسة قد هجروا الأوطان وتركوا وراءهم الآباء والأمهات — بدلا من أن يحسون بثقل القيود التى تضيق عليهم الخناق يستمتعون بالحياة بكل ما فيها من صخب ومرح . كانوا فى المدرسة يتبعون تقاليد النبلاء فى ألا يبقوا ولا يذروا فلساً واحداً فى طيات جيوبهم أما هنا فكانوا يعتبرون الدينار ثروة ، ذلك لأن جيوبهم كانت دائماً خاوية والفضل فى ذلك لجباة الضرائب من اليهود .

اجتمع هنا إذن رفقاء الجامعة الذين لم يطيقوا عصا الجامعة ولم يعوا حرفاً واحداً مما لقنوه فى الجامعة إلى جوار هؤلاء الذين يعرفون : هوراس ، وسيكيرو ، وجمهورية روما .

كان هنا لفيف من الضباط الذين برزوا وتميزوا فيما بعد تحت لواء ملك بولونيا وأشياع وأتباع كثيرون محنكون ممن كانوا يؤمنون إيماناً صادقاً أن الحياة كفاح دائب ، وأنه لا يليق برجل من النبلاء أن يعيش دون الطعن والنزال . وكان هناك كثيرون آخرون وفدوا على تلك البلاد Setch لكى يقال عنهم فى غد أنهم كانوا هناك وأنهم غدوا فرساناً شديدى الحراس .

ولكن من الذى لم يكن هناك ؟

لقد كانت تلك الجمهورية الغريبة وليدة ذلك العصر ، فالمولعون بالحروب وكئوس الذهب والوشى الزاخر الفاخر وقطع العملة

الذهبية ، هؤلاء يجدون طريقهم للافادة منها فى جميع الأوقات . أما عشاق المرأة فلن يجدوا ها هنا لهم عملا . إن النسوة فى الـ Setch لا يجرؤن أن يظهرن حتى فى الضواحى .

أما بالنسبة لاوستاب وأندريا فقد عجبوا لأمر غاية العجب ذلك أن يدخل جمع غفير إلى مدينة الستش Setch لا يسألهم سائل من أين قدموا ؟ ومن يكونون ؟ وما هى أسماؤهم ؟

لقد وفدوا إلى هناك كأنهم عائدون إلى منزل غادروه منذ ساعة فحسب وكان الغريب الوافد يقدم نفسه إلى العمدة (الرئيس) كوشيفوى الذى كان يسألهم عادة : مرحباً أيها الرفيق ، هل تؤمن بالمسيح ؟ فكان يجيبه الوافد الغريب : نعم أومن به . ويعود الرئيس فيسأله : وهل تذهب إلى الكنيسة ؟ فكان يجيب : نعم . وعندئذ يسأله الرئيس (العمدة) مرة أخرى : إذن دعنا نراك تتبرك بالصليب .

فيقوم الغريب بالتصليب .

وعندئذ تنتهى المراسيم ويقول كوشيفوى : حسناً إذهب واسكن أينما أردت !

وكان أهالى الستش يؤدون شعائر الدين فى كنيسة واحدة ، وكانوا جميعاً على استعداد أن يدافعوا عنها حتى آخر قطرة من دمائهم مع أنك لم تكن تسمع فيها عن الصوم أو التوسّط والاعتدال .

ولم يكن يجرؤ على الإقامة بين ظهرانيهم والاتجار معهم إلا فئة قليلة جشعة من اليهود والأرمن والتتر ، كانت تزاول التجارة فى الضواحى ، ذلك لأن أهالى زابورجى لم يساوموا قط فى شراء أى شىء ، وكانوا يصرفون أموالهم ذات اليمين وذات الشمال حيثما اتفق . ولكن الويل لهؤلاء التجار الجشعين ! ! إنهم كانوا أشبه بالذى يقطن عند سفح جبل ڤيزوف ، فإنه بمجرد أن يبدد الزابورجى ما فى يديه فإنه يهجم فى استهتار يحطم أكشاكهم وينهب متاجرهم ويأخذ ما فيها بدون مقابل .

وكانت قبائل الستش تتكون من ستين مقاطعة يطلق عليها لفظ (كيرون) ، كل منها أشبه ما يكون بجمهورية مستقلة منفصلة ، قريبة الشبه بمدرسة داخلية ، فلم يفكر أحد أن يقيم بيتاً أو يقتنى أملاكا — وكان كل شىء فى يد رئيس المقاطعة الذى لقبوه فيما بعد بالأب ، فى عهدته كل شىء بيت المال والكساء والغذاء حتى الثريد وحطب الحريق .

كانوا يسلمون إليه أموالهم ليقوم عليها ويحرسها لهم ، وقد حدث كثيراً أن تنازعوا فيما بينهم ، وعند ذاك ينتقل النزاع من الكلام إلى اللكمات ويزدحم الميدان بالناس وترتفع أصواتهم بالمدح فى أجساد المتنازعين حتى إذا سيطر أحدهم على الموقف فإنهم ينغمسون جميعاً فى اللهو والشراب . وهكذا كانت حياة أقوام الستش التى كانت تجذب إليها الشباب بمغرياتها .

أما أوستاب وأندريا فقد اندمجا فى مجالس الشباب ، بين هذا الخضم الزاخر من المرح والعربدة وسرعان ما نسوا بيت أبيهم والجامعة وكل شىء كان يشغل عقولهم واستسلموا للحياة الجديدة .

كل شىء قد راقهم ، عادات الستش المرحة اللعوب ، وإدارة مرافقه البسيطة ، وقوانينها وإن تكن أحياناً تبدو قاسية قسوة غير عادية فى مثل تلك الجمهورية الناعمة بالحرية .

فإذا أدين قوزاق فى حادثة سرقة ، مهما بلغت تفاهتها ، اعتبر مصدر عار وشنار لكل القوزاق ، وكان التعس الحسيس يوثق إلى جانب عمود العار وتوضع إلى جواره عصا ، وكان لزاماً على عابر سبيل أن يضربه بالعصا حتى يفضى به الضرب إلى الموت .

والقوزاق إذا لم يف بدينه ، يصفّد بالأغلال إلى جانب مدفع ، لا يبرح مكانه حتى يفتديه أحد الأقران ويسدد عنه الدين .

ولكن شيئاً لم يؤثر فى نفس أندريا كالعقوبة المقررة للقتل ، فقد رأى بعينى رأسه حفرة تحفر ويلقى فيها القاتل حياً ثم يوضع فوقه نعش فيه جثة القتيل ويدفن الاثنان معاً . وقد ظل أندريا ردحاً طويلا من الزمان يفزعه ويقضى مضجعه ذكرى هذا القصاص الرهيب ، وصورة ذلك الرجل الذى دفن حياً أمامه هو ونعش القتيل .

وسرعان ما نزل الفتيان أكرم منزل من نفوس القوزاقيين ، وكثيراً ما كانا يذهبان إلى السهل مع رفاقهم من أهل المقاطعة ،

وأحياناً وهما بكامل هيئتهما مع أهل بعض المقاطعات القريبة ، ليصطادوا عديداً من طيور السهل المتنوعة ، ومن الغزلان والماعز ، أو يذهبون إلى البرك أو إلى فروع النهر الموزعة بين المناطق ، ويرمون شباكهم لعلهم يصيبون صيداً أو يوفرون مؤناً .

ولو أن شيئاً من ذلك لا يسبر غور القوزاق ، إلا أنهم كسبوا لأنفسهم صيتاً بين الأقران بجرأتهم والحظ المؤاتى فى كل شىء ، فقد كانوا رماة شجعانا صناديد ، ويستطيعون عبور نهر الدنيبر ضد التيار ، وهو عمل شاق يؤهل الشاب الحدث ليدخل بين الظافرين وينخرط فى سلك القوزاقيين .

ولكن تاراس العجوز كان يفكر لأبناء القوزاق فى أعمال عظام ، لقد ثارت نفسه على هذا العيش الناعم وظمئت نفسه للعمل الجدى ، وظل يفكر كيف يجمع قبائل الستش على أمر جلل ومغامرة عنيفة تتطلب المهارة والفروسية . وفى ذات يوم ذهب إلى الرئيس كوشيفوى يسأله فى صراحة : حسنا يا كوشيفوى أظن قد آن أن ننزل إلى الميدان .

وأجابه الرئيس كوشيفوى وهو يخرج الغليون من فمه ويبصق على الأرض : وأين نذهب ؟

فقال بولبا : أين نذهب ؟ إننا نستطيع أن نهاجم التتر أو الأتراك .

فأجابه الرئيس فى هدوء وقد أعاد غليونه إلى فمه : لا يمكننا أن نفعل ذلك سواء ضد الترك أو التتر .

فقال بولبا : ولماذا لا يمكننا ؟

— لقد وعدنا السلطان بحفظ السلام .

— ولكنه كافر ، والله وكتابه المقدس يأمراننا أن ننكل بالكافرين .

— لا يحق لنا . لو أننا لم نقسم بأيماننا لجاز لنا ولكن الآن لا ينبغى لنا .

— لكن لماذا ؟ ماذا تعنى بقولك أنه لا يحق لنا ؟ إننى وولداى هاهنا وكل منهما شاب غض الإهاب ، لم تعركه الحرب . وأنت تقول لا يحق لنا ؟ هل تعنى بذلك أنه لا يمكن لأهالى زابورجى أن يذهبوا إلى الحرب ؟

— حسناً . ذلك ما ينبغى أن يكون :

— هل تذهب قوة القوزاق هكذا بددا ؟ أيموت الإنسان كالكلب لا يأتى عملا جليلا ، لا ينفع الوطن والمسيحية ؟ لماذا نعيش إذن ؟ خبرنى — بحق الشيطان — من أجل أى شىء نعيش ؟ إنك رجل ماهر ، وإنهم لم ينتخبوك وينصبوك رئيساً عليهم عبثا ؟ قل لى بربك ما الذى نعيش من أجله إذن ؟

ولم يرد الرئيس كوشيفوى على هذا السؤال ، وظل صامتا برهة من الوقت ، فإنه قوزاق عنيد . وأخيراً نطق :

— وبرغم هذا كله ، لن تقع ثمة حرب .

وسأله تاراس مرة أخرى :

— أتقول لن تقع حرب ؟

— لا

— ولا جدوى من التفكير فيها ؟

— لا فائدة .

وأخذ بولبا يحدث نفسه : انتظر يا ابن الشيطان ، سأريك !

وأصر فى نفسه أن ينتقم لنفسه من الرئيس كوشيفوى .

وبعد أن فرغ من الحديث مع عدد من أصحابه ، دعاهم وأفرط لهم فى الشراب وسرعان ما اتجه القوزاق — وقد لعبت بعقولهم الخمر — شطر الميدان حيث توجد الطبول التى تدق إيذاناً بالحرب معلقة إلى عمود . وإذ كان يحتفظ حارسها الطبال بالعصى التى يدق بها عليها ، فقد أمسك كل واحد منهم قطعة من الخشب وأخذوا يقرعون الطبول .

وكان أول مستمع للنداء هو الطبال نفسه ، وهو رجل مارد طويل بعين واحدة ، لكنه يبدو بها وهى ناعسة مخيفاً مفزعاً .

وصاح : « من الذى يجرؤ على قرع الطبول ؟ » .

فأجابه العجائز المخمورون : صه ! تناول عصاك وأقرع الطبول إذا ما أمرت .

أما الطبال العليم بما تئول إليه هذه الحوادث فقد أخرج

عصيه من جيبه ، وأخذ يدق على الطبلة ، وسرعان ما أقبل أهالى زابورجى كأنهم النحل الأسود الطنان ، تجمعوا فى شكل دائرة وأخيراً عند النداء الثالث ظهر الزعماء : كوشيفوى بعصاه شعار السلطان ، والقاضى بخاتم الحرب ، وموثق العقود بمحبرته ومداده والحارس بعصاه . أما كوشيفوى والزعماء الآخرون فقد خلعوا قبعاتهم وأحنوا أجسادهم فى كل الاتجاهات ، إلى القوزاق الواقفين هنالك فى فخار ، وأسلحتهم فى أغمدتها . وسأل الرئيس (كوشيفوى) : ما معنى هذا التجمع ؟ وما هى مشيئتكم أيها السادة ؟

وانبعثت الصيحات واللعنات فأسكتته — وصاح القوزاق من بين الجمع المزدحم : « اترك عصا السلطان — ضعها فوراً يا ابن الشيطان اللعين ، لا تريدك بعد الآن » .

وبدأ بعض عقلاء المقاطعات (الكورين) غير راضين ، وأخيراً أخذوا بتلابيب بعض ، يتبادلون الصفعات . وتعالى الصراخ والضجيج . وحاول كوشيفوى أن يتكلم ولكنه عاد وتدبر . إنه يعلم أن الجمهور الثائر المسيطر على الموقف سوف يوسعه ضرباً حتى الموت ، كما يحدث غالباً فى تلك المناسبات ، فآثر الانحناء للعاصفة ووضع عصاه واختفى وسط الجموع الغفيرة .

وصاح القاضى والموثق : « أيها السادة : هل تريدون منا أيضاً أن نعفى من وظائفنا ؟ » .

وتأهبوا لتسليم المحبرة وخاتم الجيش والهراوة .

وصاحت الجماهير : « بل استمروا فى عملكم ، إنما أردنا أن نطرد كوشيفوى ، فإنه كمجانز النسوة ونحن نريد أن يكون الرئيس رجلا .

— من إذن تنتخبونه بدلا من كوشيفوى ؟

وصاح فريق منهم : « نختار كوكوبينكو » .

وأجاب الفريق الآخر : « نحن لا نريده ، فإنه ما يزال صغير السن ، ما زال لبن أمه على شفتيه » .

وصاح البعض : « بل نصِّبوا شيلو يكون رئيساً عليكم »

وثارت الجماهير قائلة : « إن شيلو رجل غير حازم متردّد . . . من أى نوع من القوزاق هو فى الوقت الذى هو فى السرقة كالتتر ؟ . . . إنه ابن كلب . . . فليذهب إلى جهنم وبئس المصير . . . هشموا رأس شيلو السكير المخمور .

— وبوروداتى ، فلنجعل بوروداتى رئيساً علينا !

وصاحت الجماهير : ما نريد بوروداتى ، لعنة الله عليه (ابن الزانية) وهمس تاراس بولبا أن نادوا باسم كيردياجا .

وصاحت الجماهير الصاخبة : كيردياجا ! كيردياجا ! بوروداتى ! بوروداتى ! كيردياجى ! كيردياجا ! شيلو ! إلى الشيطان ! كيردياجا .

وبرز المرشحون على الفور من وسط الجموع ، بمجرد أن

سمعوا أسماءهم ينادى بها خشية أن يُظنّ أنهم أثروا شخصياً فى الانتخاب .

وتعالى النداء : كيرديا جا ! كيرديا جا ! بوروداتى

وبدأوا يسوون النزاع ، وأخذ الأمر مظهر العنف وتبادل اللكمات وفاز كيرديا جا

— إذهبوا وآتوا بكيرديا جا .

وخرج من الحشد اثنا عشر قوزاقياً وكان بعضهم لا يقوى على حمل جسده من أثر الشراب (الفودكا) وتوجهوا من فورهم إلى كيرديا جا يعلنون انتخابه .

وكان كيرديا جا رجلا عجوزاً بيد أنه كان من القوزاق المهرة ، ظل جالساً فى ناحيته فترة طويلة كأنما لا يدرى بمجريات الأمور ، وابتدرهم بالسؤال : ماذا تبغون أيها السادة ؟

— تعالى معنا ، فقد تم انتخابك رئيساً بدلا من كوشيفوى

وقال كيرديا جا : رفقاً ورحمة بى أيها القوم ، فإنى آخر من يستأهل هذا الشرف ، أأكون رئيساً عظيما ؟ ؟ مالى وهذا المنصب ، ألا يمكنهم أن يجدوا منى خيراً فى الجيش كله ؟

وصاح أهل زابورجى : قلنا لك أن تعالى معنا .

وأمسك بذراعيه اثنان منهم ، ورغم امتناعه وعناده فقد جذبوه إلى الميدان بشدة حتى أنهم استعملوا اللكم والركل ، وكانوا يستحثونه قائلين : « لا تتخلف يا بن الشيطان ! إكسب هذا

الشرف أيها الكلب حينما يعرض عليك » .

وبهذه الطريقة اقتيد كيرد ياجا إلى حلقة مستديرة تضم القوزاق ورفع الحراس أصواتهم ، ونادوا فى الجموع بصوت كأنه الرعد : « حسناً أيها السادة ، هل تقبلون جميعاً أن تنصبوا عليكم هذا القوزاق رئيساً ؟ » وضج الجميع صائحين : نعم نقبل .

وامتلأ الوادى جميعه بأصداء الهاتفين .

وتقدم أحد الزعماء وعرض عصا السلطان على الرئيس الجديد المنتخب ، ووفقاً للتقاليد رفضها ، ثم عاد فعرضها مرة أخرى فكرر كيرد ياجا الرفض ، ولم يتناولها إلا بعد عرضها للمرة الثالثة .

وتعالت أصوات الاستحسان من الجماهير وتردد صداها فى الوادى جميعاً . ثم برز من وسط الصفوف الأربعة الكبار سنا بين جميع القوزاق بشواربهم ونواصيهم البيضاء (فلم يكن ممكنا أن تجد بين رجال الستش أناساً طاعنين فى السن إذ لا رجل واحد من زابورجى مات أبداً ميتة طبيعية) .

وقبض كل منهم على حفنة من التراب حولتها الأمطار إلى أوحال ، ووضعها فوق رأس كيرد ياجا ، وتساقط الوحل من رأسه إلى خديه فلطخ وجهه ، ووقف كيرد ياجا صامداً وأثنى على القوزاق للشرف الذى حملوه إياه .

وهكذا انتهت مراسم الانتخاب الصاخب ، ولكن بقى شىء واحد ذلك أن أحداً لم يفرح بهذه النتيجة مثلما فرح بها بولبا .

لقد انتقم لنفسه من الرئيس السابق (كوشيفوى) ، وفضلا عن ذلك فقد كان كيرد ياجا رفيقاً قديماً شاركه نفس المعارك فى البحر والبر ، وقاسمه حياة الجندية بقسوتها وشدتها .

وانتشرت الجموع ليحتفلوا بالانتخاب الجديد ، وبدأت الغوغاء وانتشر الشغب على نطاق لم ير له أوستاب وأندريا مثيلا له من قبل . فنهبت حانات الخمر ، واستولى عنوة على ما فيها من عسل مخمر أو فودكا دون أداء الثمن ، أما أصحاب هذه الحانات وحراسها فحمدوا الله أن نجوا بجلودهم . وظل الجميع طول الليل ينشدون أناشيد الحرب ، وتألق القمر الصاعد وأرسل نوره على فرق الموسيقى التى تسير فى الطرقات بآلاتها العازفة مع رجال الكنيسة الذين استبقوا بين قبائل الستش لينشدوا الترانيم فى الكنيسة وليمجدوا أعمال أبطال زابورجى .

وأخيراً بدأ الشراب يفعل فعله فى تلك الرؤوس القوية ثم حل التعب فكنت ترى قوزاقيا هنا منبطحاً على الأرض وقوزاقياً هناك يعانق زميلا له حتى يأخذ منه التأثر والانفعال إلى حد الانفجار بالبكاء ، وما يلبث الاثنان أن يسقطا على الأرض من جديد . لقد كانت الجماعات ترقد كلها كأنها أكداس من اللحم البشرى . كان يبحث الإنسان عن أصلح مكان للنوم فكان يذهب إلى جرن يتمطى فيه ! ، وحتى أصلبهم عوداً أخذ يتعثر فى غير تماسك وما تلبث نشوة الخمر أن تغلبه أخيراً فيهوى إلى الأرض نائماً . وبات بذلك كل قبائل الستش نوّاماً .

الفصل الرابع

ومنذ اليوم التالى بدأ تاراس بولبا يناقش الرئيس الجديد فى أفضل السبل لتوجيه رجال زابورجى نحو الكفاح . وكان الرئيس القوزاق ماهراً وماكراً ، يعرف تماماً طباع الزابورجيين ، وبدأ يقول : « لا يمكن أن نحنث فى أيماننا مهما كانت الأسباب » ، وبعد فترة صمت أضاف : « ولكن هناك ثمة وسيلة . لن نحنث فى أيماننا ولكننا سندبر أمراً . ادع القوم للاجتماع من تلقاء أنفسهم لا بناء على أمرى . أنتم خليقون أن تحسنوا عمل ذلك أما أنا وباقى الزعماء فسنسرع إلى الميدان وكأننا لا ندرى من الأمر شيئاً .

ودقت الطبول وفى أقل من ساعة على هذا الحديث تجمع هؤلاء القوزاق السكارى الثملون رغم ذلك على الفور ، وإذا بمليون قلنسوة قوزاق تملأ الميدان .

وبدأت الهمسات : من ؟ وعلام ؟ ؟ ولماذا كل هذه التجمعات . . . ؟ أسئلة لم يجب عنها أحد .

وأخذت أصوات التذمر فى الارتفاع ، فى هذا الحى أو ذاك : إن قوتنا — نحن القوزاق — تضيع سدى ، لا حرب ، والزعماء لقد تبلدوا تماماً ، عيونهم قد انتفخت وتورمت من الشحم ، إن العدالة غير موجودة فى العالم .

أنصت القوزاق الآخرون إلى هذه الأقوال فى بداية الأمر ، ثم بدءوا يجأرون بالشكوى ويقولون : نعم ، تالله ألا عدل فى الدنيا .

وأظهر الزعماء دهشتهم واستياءهم من هذا الكلام . . . وأخيراً تقدم الرئيس إلى الأمام قائلا : اسمحوا لى أيها السادة الزابورجيين ، أن أتكلم فيكم .

فصاح الجميع : دعنا نسمع ما تريد أن تقول

فبدأ يتكلم : إن مضمون خطابى أيها السادة الأفاضل أن أبين لكم — وأنتم أدرى منى بما أقول — أن كثيرين منكم قد غدوا مدينين لأصحاب الحانات من اليهود أو لإخوانهم من المواطنين ، أغرقهم الدين ، حتى الشيطان لن يرضى بإقراضهم ، إن سيوفكم قد أصبحت صدئة ، ليس لديكم أى فكرة عن الحرب بينما تعلمون أيها السادة أنه لا يستطيع شاب أن يعيش دون طعن أو نزال ، كيف يكون زابورجياً من لم يضرب عنق كافر أبداً ؟

وتمتم بولبا وهو يقول : إنه يحسن القول .

وعاد الرئيس يتم خطابه : ولكن لا تظنوا يا سادة أنى أقول هكذا لأهدد السلام . حاشا لله ! إنما أقوله لأنى أسرد الحقائق ، انظروا هنالك أى بيت لله هذا ؟ إنه لعار أن يكون هذا البيت الحقير بيتا من بيوت الله . لقد وقفت قبائل الستش سنيناً وصمدوا للأعداء وحتى اليوم ما تزال الصور التى تزين كنيستنا دون حلية

وما يزال منظر الكنيسة على ما ترونه اليوم . بل إن أحداً لم يفكر فى أن يضع لهذه الصور إطاراً من الفضة ، ولا ينفق على الكنيسة إلا ما وقفه عليها بعض القوزاق فى وصاياهم . بل إن هذه الوصايا كانت تافهة القيمة لأن الواهبين كانوا قد أضاعوا جل أموالهم فى الشراب أثناء حياتهم . إن مضمون حديثى ليس الغرض منه أن تشنوا الحرب على الكفرة ، لقد وعدنا السلطان بالأمان والسلام ، وإنا لنقارف خطيئة كبرى إذا فعلنا ذلك لأننا أقسمنا اليمين على ذلك .

وتعجب بولبا من هذا الخطاب وتمتم : ما معنى كل هذا الهراء ؟

وعاد الرئيس يقول : ومن ذلك ترون أيها السادة أنه لا يمكننا أن نبدأ الحرب . إن شرفنا العسكرى لا يسمح لنا بإتيانه ، ولكن تفكيرى البسيط يرى أن نبعث بشبابنا يستقلون الزوارق ويجوسون شواطئ الأناضول قليلا . . . ما رأيكم فى ذلك أيها السادة ؟

ورددت الجموع من كل صوب : إليك قيادنا ! إليك قيادنا ! نحن مستعدون أن نضع رؤوسنا على أكفنا من أجل ديننا .

وفزع الرئيس لهذا الأمر ، فإنه لم يقصد أبداً أن يجند جميع المواطنين فى زابورجى ، بل إنه كان يرى أنه من الخطل أن تنتهك حرمة السلام فى هذه المناسبة ، وقال : إسمحوا لى أيها السادة أن أقول كلمة أخرى . وانطلق هدير الزابورجيين : كفى ! لا تفسد

خطابك الأول وعاد يقول : إذا كنتم هكذا تريدون فلتكن مشيئتكم . ما أنا إلا عبد إرادتكم . إن جميع الناس والكتاب المقدس تقول بأن صوت الشعب من صوت الله ، وليس ثمة مشورة خير من مشورة الشعب بأجمعه . ولكنى كنت أفكر أيها السادة فى أن السلطان لن يدع هذه المغامرة الصغيرة السارة ولن يدع سيوفنا الفضّة دون إنزال القصاص ، لهذا ينبغى أن نكون على أهبة الاستعداد لمواجهته وأن تكون قواتنا يقظة ، ولن نخاف أو نرهب بعد ذلك أحداً . إن التتر قد يهبطون بأرضنا فى غيبتنا ، ولن يجرؤ الأتراك الكلاب على القدوم ما دام السيد بالباب ، ولكنهم سيطعنوننا فى ظهورنا وستكون طعنتهم مريرة ، والحق أيضاً أنه ليس فى حوزتنا قوارب كافية ولا بارود يكفى للجميع أن يحاربوا به . أما عن نفسى فإنى لها فما أنا إلا عبد إرادتكم .

ولاذ الرئيس بالصمت ، وانقسم الحشد إلى أحزاب ، وبدءوا يتناقشون جميعاً فى الموقف . وأخذ رءوس العشائر فى التداول ومن حسن الحظ أن قلة كانت منتشية من الخمر ولهذا قرروا إتباع النصيحة الرزينة العاقلة . وأوفدوا على الفور فريقاً منهم إلى الشاطىء المقابل حيث توجد مخازن الجيش وحيث توجد أحراز السلاح المأخوذة من العدو مدفونة تحت المياه وبين أشجار البوص ، وانطلق الباقون إلى الزوارق يفحصونها ويعدّونها

للحملة المنتظرة . وفى لمح البصر اكتظ الشاطىء بالبشر وبرز النجارون بفئوسهم فى أيديهم . ووقف الزابورجيون ، وقد لفحتهم الشمس بصدورهم العريضة وأقدامهم القوية وشواربهم السوداء والبيضاء وقد غمر الماء سيقانهم حتى الركبة فرفعوا سراويلهم وأخذوا يشدون حبال السفن وينزلونها إلى الماء بينما كان آخرون يجذبون بقوة كتل الأخشاب والأشجار المقطوعة حديثاً .

هنا كانت سفينة يبطنونها بالألواح وأخرى وقد قلبت يثبتونها بالدسر المدهونة بالقار ، وكانت هناك أيضاً حزم طويلة من الغاب يحاولون وضعها إلى جانب السفينة على الطريقة القوزاقية كى لا يكتسحها اليم .

وأوقدت النيران على الشاطىء فى كل مكان ، وكان القار يغلى فى غلايات من النحاس لطلاء المراكب . كان الكبار المجربون يدربون الصغار وكانت الأصوات تعلو من كل جانب وضجيج العمل فى كل مكان فبدا الشاطئ كأنه يبعث من جديد فى حياة ملئها النشاط والحركة .

واقترب مركب من الشاطئ فى هذه اللحظات ، كان ركابه يلوحون بأيديهم ، كانوا قوزاقا فى أسمال بالية بائسة لا يغطى أجساد بعضهم إلا قميص وقد وضعوا فى أفواههم غلايين قصيرة ،

كان منظرهم يدل أنهم نجوا أخيراً من مصيبة أو أنهم أنفقوا كل ما يملكون .

وتقدم قوزاق من بينهم يناهز الخمسين من العمر ، قصير القامة ، عريض الصدر ، وكان يزمجر ويشير بيده ، لكن صوته غرق بين أصوات وصياح العمال .

سألهم الرئيس : ماذا تحملون من أنباء ؟ متى وصل مركبكم إلى الشاطئ ؟ فتوقف العمال عن العمل وقد أمسكوا بمعاولهم وفئوسهم ونظروا مترقبين ، وصاح القوزاق العريض الذى بالقارب : أخبار غير سارة .

— وما هى ؟

— أتسمحون لى أيها السادة أن أتكلم فيكم ؟

— تكلم .

— ربما رأيتم أن تدعوا الناس جميعاً للاستماع إلىّ ؟

— تكلم ، إنا هاهنا جميعاً .

وتجمع الناس :

— ألم تسمعوا بما حدث لقائد القوزاق ؟

وسأله أحد رؤساء القبائل :

— ما هذا الذى حدث ؟

— إيه ؟ ماذا ؟ يبدو أن التتر قد أصموا آذانكم حتى أصبحتم لا تسمعون شيئاً

— حسناً . أخبرنا إذن عما يجرى هناك

— إن ما يحدث الآن لم يره وليد أو معمد من قبل .

وهنا صاح واحد من الجماهير وقد نفد صبره .

— خبرنا ماذا يجرى هناك يا ابن الكلب

— ستجىء أيام لن تكون كنائسنا المقدسة تحت أيدينا

— وكيف يكون ذلك ؟

— لقد استأجرها اليهود . فإذا لم ندفع لليهود سلفاً فلن نؤدى فريضة الله فى الكنيسة

— هذا الرجل يهذى من غير شك .

— وإذا لم يضع اليهودى شارته بيده القذرة على الخبز المقدس فلن نتمكن من الحصول عليه

— إنه يكذب . أيها السادة . لا يمكن أن يضع إسرائيلى شارته على الخبز المقدس .

— أصغوا إلىّ . ليس هذا كل شىء ، فالقساوسة الرومانيون ينتقلون فى كل أنحاء أوكرانيا بالجملة ، وليس هذا مهماً ، لكن المهم أنهم استبدلوا بخيولهم التى يقودونها المسيحيين الخلص أو الأرثوذكس وليس هذا فقط ، بل إنهم يقولون إن اليهوديات يصنعن أرديتهن من أردية قساوستنا .

هذا هو ما يحدث أيها السادة الآن فى أوكرانيا بينما أنتم هنا تأمون فى زابورجى ، تشربون وتلهون .

يظهر أن التتر قد أدخلوا الرعب فى نفوسكم فعميت أبصاركم وأغلقت آذانكم . . . حتى أصبحتم لا تعلمون شيئاً عما يحدث فى العالم .

واندفع الرئيس قائلا :

— على رسلكم ! على رسلكم !

وكان حتى هذه اللحظة ، يثبت نظره فى الأرض كما يفعل كل أهالى زابورجى ، لا يستسلم لعاطفته إذا ادلهمت الأمور ؛ بل يؤثر المشورة ولا يجعل ثورة الغضب تصل إلى غايتها أو تفعل أفاعيلها .

— على رسلكم ! خبرونى ! ماذا كنتم تفعلون ؟ قطع الشيطان أجساد آبائكم ، ماذا كنتم تفعلون ؟ أين كانت أسيافكم ؟ كيف سكتم على هذا الباطل .

— ماذا فعلنا ؟ وكيف سكتنا ؟ . . . أكنت تستطيع أن توقفهم عند حدهم وهم خمسون ألفا من البولنديين ، لقد كان من بين قومنا كلاب أوغاد رضوا باعتناق عقيدتهم ، لقد حدث ذلك وما يغنى عنا أن نخفى خطايانا .

— وأين كان قادتكم ؟

— ندعو الله أن يقينا شر الفناء الذى أصابهم .

— وكيف كان ذلك ؟

— إن قائدنا الآن شواء فى وعاء من نحاس بمدينة وارسو

أما بقية ضباطنا فإن أيديهم ورءوسهم معروضة على العربات فى الأسواق وهذا هو مصير قادتنا وضباطنا جميعاً .

وثاب الجمع إلى رشده . ساد فى البداية صمت كالهدوء الذى يسبق العاصفة ، ثم انقلب الهدوء إلى أصوات عالية وانطلقت الحناجر تصرخ قائلة :

— ماذا ؟ اليهود يستأجرون الكنائس المسيحية ؟ القساوسة الرومان يربطون الأرثوذكس إلى عرباتهم ؟ ماذا ؟ كيف نسمح بهذا التعذيب فوق هذه التربة الروسية من أجل الطاعة البابوية ؟ كيف نتركهم هكذا يعبثون بقادتنا ورؤسائنا ؟ كلا لن يكون هذا : لن يكون ذلك أبداً .

وتجاوبت هذه العبارات بين الجمع الحاشد وانفجر الزابورجيون فى ثورة عارمة ، واستولى عليهم شعور جارف بقوتهم وبأسهم . لم يعد الأمر هياج قوم ضعاف العزيمة بل ثورة أقوام أقوياء صعاب المراس ، لا تشتعل نفوسهم سريعاً ولكنها حين تتقد لا تنطفىء .

وتردد النداء بين الجماهير : اشنقوا كل اليهود ، علموهم ألا يصنعوا ملابس نسائهم من أردية رجال الدين ، علموهم ألا يضعوا شعارهم على خبزنا المقدس ، أغرقوهم فى اليمّ ، فى نهر الدنيبر .

نطق بهذه الكلمات واحد من بين الجموع الحاشدة ، وسرعان

ما انتشرت كالنار فى الهشيم كأنها قصف الرعد فى الآذان ، واندفع الجميع إلى الضاحية وقد اعتزموا ألا يذروا لليهود دياراً وأن يفنوهم حتى آخرهم .

وضاعت البقية الباقية من آثار الشجاعة فى نفوس بنى إسرائيل ، فاختبئوا فى براميل الفودكا وفى الأفران بل إن بعضهم ارتدى ملابس النساء لينجو بنفسه ، لكن القوزاق لم يؤخذوا بهذه الحيلة .

وخرج أحد اليهود من وسط أقرانه وكان طويل القامة نحيلا ملأ قلبه الفزع وظهر الحزن على سيماه وصاح :

— أيها السادة الأماجد ! أيها السادة الأماجد ! دعونى أقول كلمة ، كلمة واحدة بسيطة ، سأخبركم بنبأ لم تعلموه من قبل ، بنبأ هام لا يمكن تصور درجة أهميته .

ونطق بولبا : حسناً دعوه يتكلم ، وكان بولبا من الرجال الذين يسمحون للمتهم بالدفاع عن نفسه قبل الحكم عليه .

وانطلق اليهودى يقول : أيها السادة الأمجاد . إن سادة مثلكم لم تر الأرض مثلهم من قبل ، وأقسم بالسموات العلا على ذلك ، رقة وطيبة وشجاعة . . . . وأخذ صوته يهتز ويضطرب من الخوف . . . كيف نضمر سوءاً لهم . لكم يا أهل زابورجى ، إن مستأجرى أرض أوكرانيا ليسوا من قومنا أبداً ، أقسم بالسموات أنهم ليسوا كذلك ، إنهم ليسوا يهوداً بالمرة ، إن

الشيطان وحده يعلم من هم هؤلاء القوم ، إنهم يستحقون أن يُبصق على وجوههم . . إننا كلنا نرى ذلك ، أليس ذلك صدقاً يا شالوم ؟ أليس كذلك يا شمول ؟

وأجاب شالوم وشمول من بين الجمع الحاشد : نقسم بالسموات العلا إنه الحق . وكان كلاهما يلبس قبعة ممزقة ، ويبدو شاحب اللون ، كالمادة التى يصنع منها الفلين .

واستمر اليهودى الهزيل : « إننا لا نتعاون مع أعدائكم ، ولا نود أن نعرف الكاثوليك ، أقضّ الله مضاجعهم . إننا وإياكم يا أهل زابورجى كالإخوة » .

وصاح واحد من الجموع : « ماذا تقولون ؟ أنتم إخوة الزابورجيين ؟ لن يكون ذلك أبداً أيها اليهود اللاعين . أيها الناس ألقوا بهؤلاء فى نهر الدنيبر ، أغرقوا هؤلاء الكفرة جميعاً .

وكانت هذه الكلمات بداية الشرر الذى أشعل النار ، فأمسكوا بتلابيب اليهود ، وبدءوا يقذفونهم وسط أمواج النهر ، وتعالى الصراخ الأليم من كل جانب ، ولم تنفرج وجوه الزابورجيين العبوسة إلا عند ما رأوا أرجل اليهود وأحذيتهم وقد علت فى الفضاء .

أما الخطيب القس ، الذى جلب المصائب على أم رأسه ، فقد انفلت من معطفه الذى كان يلبسه وتعلق بقدمى بولبا ، وهو يلبس قميصه ، مولولا بصوت كئيب : « أيها السيد العظيم ! أيها

السيد الماجد ! لقد عرفت أخاك المرحوم دوروش ، لقد كان زين الفرسان ، لقد أعطيته ثمانمائة سيكون (عملة قوزاقية) ليفتدى من أسر الأتراك .

وسأله تاراس : أكنت تعرف أخى ؟

— أقسم بالله على ذلك . كان سيداً كريماً .

— وما اسمك ؟

— يانكل .

وأجابه تاراس : « حسناً » . وبعد لحظة من التفكير التفت إلى القوزاق موجهاً إليهم الحديث : « نستطيع فى أى وقت أن نشنق اليهود ، أما الآن فدعوه لى » .

وبعد أن انتهى من هذا الكلام أخذه تاراس إلى ناحية صفّ العربات التى كان يملكها والتى كان يقف بجوارها رجاله من القوزاق وقال له : « حسناً . انزل تحت العجلات ، وارقد ، وإياك أن تتحرك ، أما أنتم أيها الإخوان فثقوا من أنه سيظل فى هذا المكان » .

وتوجه تاراس بعد ذلك إلى الميدان ، حيث كان القوم يحتشدون منذ مدة طويلة ثم بدءوا يتركون الشاطئ ويغادرون السفن . ذلك لأنه لم يصبح الأمر أمر غزوة بحرية ، بل غدا معركة برية ، تحتاج إلى الخيل والعربات لا إلى السفن والقوارب وغدا الجميع ، الكبير منهم والصغير على السواء ، ينشد الاشتراك

فى المعركة . لقد قررنا بناء على مشورة كبرائهم ورؤسائهم ، وبعد موافقة جيش زابورجى بالإجماع ، أن يتجهوا رأساً إلى قلب بولندا ، لينتقموا مما حل برفاقهم من أذى وعار ، وليعلنوا مجد القوزاق والعقيدة ، ولينهبوا كل مدينة ، ويشعلوا النيران فى القرى والمزارع ، وباختصار ليذيعوا شهرتهم فى الآفاق وعبر السهول .

وسرعان ما تمنطقوا وامتشقوا السلاح ، وبدا الرئيس وقد تزعم جميع الرؤوس ، لم يعد المنفّـذ الوديع لمزاج الفوضويين المتقلب ، بل أصبح سيدهم المطلق ، أميراً لا يعرف سوى الأمر والنهى . ووقف كل أولئك الفرسان الذين كانوا يلهون ويلعبون فى صف واحد منتظم ، خافضى رؤوسهم احتراماً ، لا يجرءون على رفع أبصارهم حينما يصدر الرئيس أوامره فى هدوء وفى بطء ، يزن منطقه كما يفعل القوزاق العتيد الذى حنكته الأيام وقاد عديداً من المغامرات التى رسمت خططها بمهارة وحذق .

وأخذ يقول : « انظروا جيداً ، انظروا بدقة إلى كل شىء ، انظروا إلى عرباتـكم ، وإلى جرادل القار ، واختبروا أسلحتكم ، وخففوا من ملابسكم ، يكفى قميص واحد وسروالان ووعاء من ثريد الدقيق وآخر من الذرة المدشوشة ، ولا تدعوا أحداً يأخذ أكثر من ذلك . سيكون لديكم موفور من كل شىء داخل العربات ، يجب أن يكون لـكل منهم جوادان ، وينبغى أن يكون

لدينا مائتا قطيع من الثيران فإننا سنحتاج إليهم فى اجتياز الخلجان والمستنقعات .

« وأهم من ذلك كله عليكم أن تلتزموا النظام ، إن من بينكم أناساً أعرفهم بسيماهم ، إذا غنموا شيئاً نسوا كل شىء ، يمزقون الأقمشة وغالى القطيفة ليجعلوا منها خرقاً للأقدام ، اهجروا هذه العادات اللعينة ، اتركوا الفساتين ولا تأخذوا إلا السيوف إذا كانت صالحة ، والفضة فإنها ذات قيمة لأنها تدفع عنكم ديونكم ، وأحذركم ليكونن حساب كل من يحتسى الخمر أثناء الطريق عسيراً ، سأوثقه من رقبته كالكلب ، وسأربطه إلى عربة كائناً من يكون ، ولو كان أشجع شجعان القوزاق فى الجيش ، وسأطلق عليه الرصاص كالكلب ، بل سأتركه فى العراء لتمزقه الطيور الجارحة ، فإن الثمل المخمور أثناء المسير غير جدير بأن يدفن مسيحياً . وأنتم أيها الشبان ، أطيعوا كباركم فى كل شىء ، إذا أصابتكم رصاصة أو خدشكم سيف فى رأسكم أو فى أى عضو آخر من أعضاء جسدكم فلا تفكروا فى ذلك طويلا ، بل امزجوا قليلا من ملح البارود فى كأس من الفودكا وازدردوها فى جرعة واحدة ، وسترون أنفسكم على ما يرام . لا ولن تصيبكم حمى أو أى سوء ، أما الجرح فإذا لم يتسع فيكفى أن تضعوا عليه قليلا من التراب ممزوجا باللعاب فى راحة اليد وسوف يجف الجرح ويبرأ .

والآن هيّا بنا إلى العمل أيها الفتيان ، لا مدعاة للعجلة واتقنوا عملكم .

كذلك تكلم الرئيس وما أن انتهى من حديثه حتى أقدم سائر القوزاق على العمل . لقد أفاق أهل الستش وثابوا إلى رشدهم ، لم تعد ترى فرداً واحداً مخموراً ، كأن لم يكن هناك سكارى أو مخمورون بين القوزاق ! ! !

أصلح بعضهم العجلات ، وغيّروا دناجل العربات ، وشحن آخرون فيها زكائب المؤن والسلاح ، بينما أخذ آخرون بناصية الخيل يجرونها هى والثيران .

وكنت تسمع صوت حوافر الخيل من كل ناحية ، وطلقات المدافع وصليل السيوف ، وخوار الثيران ، وصرير العربات وهى تجرّ إلى الطريق ، وأصوات القوزاق ونداءاتهم المجاجلة ، واستحثاث السائقين .

وملأ الفرسان أرجاء الوادى ، فكان على المرء الذى يريد أن يجرى من المقدمة إلى المؤخرة أن يقطع مسافة طويلة .

واحتفل الراعى فى الكنيسة الخشبية الصغيرة بوداعهم ، ونثر عليهم جميعاً الماء المقدس ، ولثم الجميع الصليب المقدس .

وعندما أقلعت قافلة الفرسان وبلغت ضواحى المدينة تلفت الفرسان خلفهم ونطقوا فى نفس واحد : وداعا يا أمهاتنا حفظكن الله من كل سوء .

وبينما كان تاراس بولبا يسير على جواده وسط الضاحية ، إذ رأى اليهودى الأنسكد يانكل وقد أقام كشكا وعليه تندة ، يعرض للبيع فيه الأقداح و (القلاووظات) والبارود وكافة أنواع المؤن اللازمة للجندى أثناء السفر حتى الخبز !

وفكر تاراس : « يا له من شيطان ! ! » واتجه نحوه وابتدره : « يا لك من مأفون غبي ! لماذا أنت جالس هنا ؟ أتريد أن تقتل رمياً بالرصاص كما يقتل العصفور الموسمى ؟ (الزرزور) ؟ واقترب يانكل منه ليجيبه على كلامه وأومأ إليه بكلتا يديه كما لو كان سيذيع سراً وقال : أرجو سيدى أن يلوذ بالصمت ، وألا يحدّث أحداً بشيء . إن عربتى الخاصة بين عربات القوزاق ، سوف أحضر للقوزاق كل ما يحتاجون إليه ، وسوف أزودهم جميعاً بما يحتاجونه بأبخس الأثمان ، بأقل مما باعه لهم أى يهودى من قبل . تالله لأفعلن . ولسوف أفعل بحق السماء . وهز تاراس بولبا كتفيه ولحق بالركب ، وهو يعجب لطبيعة اليهود التى لا تعرف سوى العمل ! !

الفصل الخامس

سرعان ما أصبح سكان جنوب غربى بولندا فريسة للخوف ، وانتشرت الشائعات فى كل مكان « الزابورجيون ! ، الزابورجيون قادمون ! ! » ولاذ بالفرار كل من أمكنه إنقاذ نفسه هرباً ، انفضوا وانتثروا فى غير نظام ، بطريقة تتفق مع الروح التى اتصف بها هذا العصر ، حيث لم تكن هناك حصون أو قلاع مشيدة ، وكان المرء يقنع بإقامة أكواخ متنقلة من القش ، ويفكر قائلا : لماذا ننفق الأموال والجهود فى بناء بيت لائق ؟ وما جدوى ذلك إذا كانت غارة من التتر كفيلة أن تمحوها عن آخرها ؟

وركن الجميع إلى الفرار ، أخذ يستبدل كل منهم محراثه وثوره بحصان وبندقية ثم يلحق بفرقته ، وأخذ البعض فى الاختفاء ، مبعدين ماشيتهم ، حاملين كل ما يستطيعون حمله ، وحمل آخرون السلاح بغية مواجهة المغير الأجنبى ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت تلجأ إلى الفرار ، لقد علموا جميعاً أنه من العسير أن يحاربوا هذا القطيع العنيف المدرب على الحروب والملقب بجيش زابورجى ، والذى كان يخفى تحت مظهره الخارجى من عدم النظام والفردية نظاماً يتناسب كل المناسبة مع فنون الحرب .

وقد حرص فرسان القوزاق ألا يثقلوا على خيلهم أو يحملوا

ظهورها فى حين سار الباقون وراء عرباتهم فى هدوء واتزان ، وكانت تحركاتهم تتم ليلا ، أما النهار فكانوا يقضونه فى الحقول والغابات المهجورة والتى كانت كثيرة فى تلك الأيام ، وكانوا يطلقون أمامهم الجواسيس وطلائع الاستكشاف ليتعرفوا مكان العدو ، وكل ما يتعلق به .

وكان الزابورجيون يظهرون فجأة فى أمكنة أبعد ما يحتمل وجودهم فيها ، يخلفون وراءهم الموت والدمار ، يشعلون الحرائق فى القرى ، ويسوقون أمامهم قطعان الماشية والخيل ، أو يذبحونها على الفور .

لقد كان عيداً دموياً ، ممتلئاً بالذبائح ، أكثر منه تجريدة عسكرية ، وإن المرء ليقشعر بدنه اليوم عندما يتصور هذه السلسلة من الأعمال الوحشية ، والتى كانت شيئاً مألوفاً فى ذلك العصر النصف متوحش ، والتى كان الزابورجيون يخلفونها وراءهم أينما حلت أقدامهم . . .

هنا وهناك أطفال قد ذُبحوا ، وكنت ترى النساء اللائى تركن أحراراً قد قطعت أثداؤهن ، وسلخت جلودهن عن سيقانهن .

حقاً لقد استوفى القوزاق ديونهم غير منقوصة .

ولقد أوفد رئيس أحد الأديرة اثنين من القساوسة إليهم ليبلغهم أنهم يسيئون صنعاً ، وإن الزابورجيين والحكومة فى حالة

سلم ، وأنهم لا ينتقضون على واجبهم نحو مليكهم فحسب بل إنهم ينتقضون القوانين والشرائع المعترف بها . وكانت إجابة الرئيس : أبلغ السيد الأسقف عنى وعن جميع الزابورجيين أن ليس هناك ما يدعو للخوف ، وأن القوزاق لا يوقدون النار إلا ليشعلوا غلايينهم ! !

ولم تلبث أن احتضنت النيران المدمرة ذلك الدير الفخم ، وبدت نوافذه العظيمة ذات الطراز الجوتى حالكة من خلال لفحات اللهيب الهائج . واكتظت المدائن بحشود اللاجئين من رجال الدين واليهود والنسوة ، أملا فى حماية حامياتها ومجنديها .

وكانت الحكومة تبعث أحياناً بالنجدة المتأخرة فى شكل ثلة قليلة من الجند ، فكانت تفشل فى تعقب الزابورجيين ، أو يستولى عليها الذعر والفزع فيولون الإدبار من أول المعركة خفافاً سراعاً على ظهور الخيل ! حدث أن فئة قليلة من ضباط الملك الذين أبلوا البلاء الحسن أن قرروا توحيد قواتهم والوقوف صامدين أمام الزابورجيين ، لكن شباب القوزاق ، الذى كان يحتقر النهب والسلب والعدو المستكين والذى يتحرق لهفة لإبراز جدارته وأهليته أمام رؤسائه ، وضع كفايته ودربته موضع الامتحان فدخلوا فى نزال فردى معهم ، مع آحاد البولنديين المزهوين الجسورين البادين أجمل ما يكون فوق الخيول الصافنات وأكمام معاطفهم المرسلة تتهادى مع الريح ، وكانت فنون الحرب

بالنسبة للقوزاق أشبه برياضة ، لقد غنموا كثيراً من حلية الخيل وغالى السيوف والبنادق ، لقد راشت فراخ الطير ولما تتجاوز الشهر وأصبحت رجالا ، وأصبحت قسمات وجوههم الشابة الغضة تكسوها القوة والعبوس .

وهذا تاراس الكبير ، لقد أخذ منه السرور مأخذه ، حين رأى ولديه يتقدمان صدر الصفوف ، وبدا أوستاب كأنما ولد ليخوض المعارك وليتسلق إلى الذروة فى فنونها العسيرة . وكان يمكنه أن يزن المخاطر فى أى مشكلة كأداء ، وأن يدبر ببديهته أنجع سبل النجاة والموصلة إلى الفوز الأكيد ، وكان ذلك فى جميع الظروف ودون أى تردد أو وجل ، بل فى هدوء واتزان غريبين بالنسبة لشاب فى الثانية والعشرين من عمره . وكانت كل تصرفاته قد اتسمت بطابع الثقة المتولدة عن التجارب ، وكانت كل أفعاله تنبئ عن زعامة مرموقة فى المستقبل ، وكان هيكله يتنفس عن فتوة ظاهرة وكانت صفات الفروسية فيه قد استحالت إلى شجاعة كشجاعة الأسود .

وكان تاراس العجوز يقول : سوف يكون ضابطاً عظيما ممتازاً ، نعم وسوف يلمع اسمه أكثر من أبيه .

أما أندريا فكان صليل السيوف وطلقات البنادق بالنسبة له موسيقى جميلة استحوذت على مشاعره ، لم يكن يعرف أو يقدّر مقدماً قوته وقوة خصمه فقد أعمته نشوة القتال العنيف المفرط .

وكان يحس بشيء من التلذذ فى تلك اللحظات التى يلتهب فيها ذهن المرء ، عندما يبدو كل شيء أمام ناظريه كالدوامة ، عندما تتساقط الخيل بينما هو يعدو كالرجل المنتشى من شراب النبيذ وسط أزيز الرصاص ولمعان السيوف ، يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، غير آبه ولا مكترث بوابل الضربات التى تنهمر عليه .

وكثيراً ما عجب والده منه وهو يراه مندفعاً بهذا الحب العنيف ، ملقياً بنفسه فى مخاطر لا يجسر عليها رجل هادئ معقول يراه يصنع العجائب بجرأته وإقدامه ، وكان يحمل على الخصم حملات جنونية لا يستطيعها بل يدهش لها المحاربون القدماء الذين حنكتهم المعارك . وقد أعجب تاراس المجوز به ، وقال إنه أيضاً جندى صالح صانه الله ، ولو لم يبلغ مبلغ أوستاب إلا أنه مع ذلك جندى عظيم .

وقرر الجيش أن يسير من فوره إلى مدينة دوبنو Dubno ، حيث تحكى الشائعات عن وجود الكنوز الذاخرة ، والأقوام الأثرياء . وفى مدى يوم ونصف يوم أتموا المسير ، وظهر الزابورجيون أمام أبواب المدينة .

وآلى الأهالى أن يدافعوا عن أنفسهم حتى النهاية ، وأن يستميتوا فى القتال ، فى الميادين والطرقات ، وعلى عتبات منازلهم ، دون أن يمكنوا العدو من اقتحام منازلهم . وكانت أسوار المدينة المرتفعة تحيط بها أما حيث توجد بعض الأسوار الواطئة ، فقد

برزت حوائط من الأحجار وبعض المنازل التى استخدمت كمتاريس ، كما كانت هناك أيضاً بعض أشجار البلوط وقد بدت كأنها الطعنات المسددة إلى قلوب الأعداء .

وكانت حامية المدينة قوية ، مُلمّـةً بالواجبات الهامة الملقاة عليها ، وقد حاول الزابورجيون الاستيلاء على المدينة عنوة ، ولـكنهم قوبلوا بوابل من الرصاص المنهمر ، ولم يكن أهالى المدينة وسكانها يخلدون إلى الراحة أبداً فقد وقفوا متزاحمين على الأسوار وعيونهم تنبئ باستعدادهم للمقاومة المستميته ، واعتزم نساء المدينة على عون رجالها فى هذا الدفاع .

وتساقطت الأحجار والبراميل والآنية والقار المغلى وحقائب الرمل على رؤوس الزابورجيين كأنها المطر ، بل لقد أعمتهم .

وكان الزابورجيون يكرهون معالجة الحصون ، فلم تكن محاصرتها من ميادينهم ، ولذلك أمرهم رئيسهم بالتراجع قائلا : لا بأس أيها السادة والإخوان ، سوف ننسحب ، ولـكن أكون تترياً كافراً وليس مسيحياً إذا نحن سمحنا لأحد منهم بالخروج من المدينة ، دعوهم يموتون جوعاً .

انسحب الجيش وأحاط بالمدينة ، وإذ لم يجد عملا آخر أفضل فقد أخذ يقوم بإتلاف المناطق المحيطة بالمدينة وإحراق القرى المجاورة ، وأكداس القمح فى الحقول ، وأطلقوا جماعات الخيل ترعى فى حقول الغلال التى لم تمسسها منجلة الحصاد ، وكانت

سنابل القمح مليئة منحنية كأنها تسخر ، لقد كان المحصول غنياً وكان الفلاحون سيفيدون منه أعظم فائدة ! !

واستولى على المدينة الهلع والفزع حين رأوا أسباب حياتهم تتلف وتعدم ، بينما ربط الزابورجيون عرباتهم فى حلقة قوية مزدوجة حوالى المدينة وعسكروا فى جماعات كما كانوا يفعلون فى إقليمهم (الستش) وأخـذوا يشربون غلايينهم ، ويتبادلون الأسلحة التى غنموها ، ويقطعون أوقاتهم بلعبة القفز (البطة) ولعبة (الزوج والمفرد) ، وينظرون إلى المدينة فى هدوء قاتل مثير .

وكانت نيران الحراسة تشعل كل ليلة ، وفى كل جماعة يغلى الطهاة الثريد فى مراجل نحاسية ضخمة ، فى حين يقف حراس أيقاظ إلى جوار النار المضيئة طوال الليل .

وأخذ الـكلل يتسرب إلى نفوس الزابورجيين من جراء هذا الركود ، والهدوء المتطاول ، الذى لا يصطحبه شىء من القتال ، فأمر الرئيس بزيادة حصة الفرد منهم فى النبيذ ، وهو ما كان يحدث أحياناً فى الجيش حينما يتوقف عن السـير ولا يكون أمامه أعمال شاقة .

ولم يكن ليرضى عن هذه الحياة شباب القوزاق ، ولا سيما أبناء تاراس بولبا ، حتى لقد دبّ السأم والملال فى نفس أندريا .

ووجه تاراس إليه الحديث : أيُّهذا الفائر الثائر ! اصطبر وتحمل إخوانك القوزاق ، وسوف تـكون بينهم زعيما يوماً ما ، ليس

المحارب الحق ذلك الذى لا يهن ولا يخور فى أعنف المعارك ، بل إنه ذلك الذى يقبل البطالة من العمل ويتحمل كل شىء ثم ينهج سبيله الخاص مهما واجهته المصاعب !

لكن الشباب المتحمس لا يمكن أن يتفق أبداً مع السن المتقدمة ، فكل منهما طبيعة مغايرة ، ونظرتهما إلى الشىء الواحد مختلفة متباينة .

وفى خلال تلك الأثناء ، كان لواء بولبا بقيادة توفكاش قد لحق بالجيش ومعه اثنان من الرؤساء وكاتب العقود وضباط اللواء الآخرون ، وبذلك بلغت قوتهم أربعة آلاف مقاتل قوزاق من بينهم عدد موفور من الفرسان الذين تطوعوا من تلقاء أنفسهم — دون دعوة — بمجرد أن علموا بمجريات الحوادث .

وقام الرئيسان بتوصيل دعوات الأم إلى ولديها وتقديم أيقونيتين من شجر السرو مأخوذتين من دير بيجورسك فى كييف . وعلّق الإخوان الصورة الدينية حول عنقهما ، وأخذا برغمها يفكران تفكيراً عميقاً فى أمهما العجوز . . . تُرى ما الذى تعنيه بدعواتها ؟ ما الذى تنذر بوقوعه ؟ هل كانت دعوات وبركات لانتصارهم على العدو وبعدئذ العودة السعيدة إلى وطن الآباء حاملين غنائمهم وفى ركابهم المجد الذى يتغنى به المنشدون على قيثاراتهم ؟ أم هل كانت . . . . ولكن المستقبل مجهول ، وهو ماثل أمام الإنسان كضباب الخريف الذى يعلو فوق المروج ، تطير فيه الطير

وتقع عمياء ، ترفرف بأجنحتها ولكنها لا ترى بعضها البعض ، لا الصقر يرى قرىّ الحمام ، ولا القمرى الصقر ، ولا أحد منها جميعاً يعلم كم بعد به الطيران عن كأس الحمام ! !

وكان أوستاب قد انتهى منذ وقت بعيد من أداء واجباته ، وذهب إلى جماعته ، ولكن أندريا أحس عبئاً ثقيلا على نفسه ، يكاد يخنقه ولم يكن يدرى ما سببه ؟ ، وكان القوزاق قد فرغوا من عشائهم ، وكان بدء الظلام قد تلاشى ، وبدأ ليل شهر يوليو الجميل يملأ الأجواء ، ومع ذلك فإنه لم يذهب إلى جماعته ولا آوى إلى الرقاد ، بل ظل مسحوراً بالصورة التى أمامه . . . عديد لا يحصى من النجوم تتلألأ فى كبد السماء ، والعربات تملأ الميدان ملأى بالسلع والمؤن التى أمروها من الأعداء ، وأدلاء القار المتساقط معلقة تحتها ، وحوالى العربات كنت ترى الزابورجيين منبطحين على الحشائش نائمين فى مظهر جميل وقد أسندوا رؤوسهم إلى كيس أو قبعة أو جنب زميل ! !

وكان السيف إلى جوار كل قوزاق ، وكان إلى جواره أيضا ثقاب وغليون قصير محلى بنقوش نحاسية وفرشة من السلك وحجر للقدح .

وكانت الأبقار ترقد كأنها كتل بيضاء ضخمة ، وقد ضمت أقدامها تحتها أشبه ما تكون بالحصى الأشهب اللون فوق منحدرات الحقول .

ومن كل الجنبات كان الجند النوَّم يغطون ، وبدأت أصواتهم تتعالى وتتصاعد ، وكان يجاوب ذلك من الحقل صهيل مدوٍّ من الجياد بسبب ما شد إلى أرجلها من وثاق .

وكان جمال الليل فى شهر يوليو قد اكتسب فى أثناء ذلك بهاء وجلالا . وكانت نيران المناطق المجاورة لم تخبُ ولم تنطفىء بعد . وبينما فى صقع من الأرض كنت ترى شعلة النيران تمتد فى هدوء وجلال صعدا إلى السماء ، إذا بها فى صقع آخر تقابل شيئاً ملتهباً فتندفع فى دوامه تهسّ وتندفع صوب الأنجم نفسها ، ثم تتلاشى ألسنة النيران فى طبقات الجو العليا .

هنا الدير المحترق الأسود كأنه راهب عبوس يعرض عظامه الكئيبة عند كل دفعة من اللهب ، وهناك حديقة الدير واللهيب فى أنحائها .

وكنت تسمع حفيف الأشجار وقد التفت حولها النيران وعلاها الدخان ثم فجأة تشتعل فى عناقيد البرقوق الناضج فى ضياء فوسفورى حاد يبعث ألواناً بنفسجية ، أو هنا وهناك تحيل الكمثرى الصفراء إلى عسجد نقى . . . ووسط هذا كله كنت ترى شبحاً أسود ليهودى أو كاهن مسكين وقد تدلى أو استند إلى حائط البناء وقد التهمته النيران مع هذا البناء .

والطير صافات محلقات بعيداً من فوق الحريق ، تبدو كأنها كتلة من الصلبان الدقيقة الداكنة منصوبة فوق حقل محترق ،

وبدت المدينة المحاصرة كأنها نائمة : مآذنها وسقوفها وأسوارها وجدرانها تخفق وتضطرب فى ضياء الحرائق البعيدة .

وسار أندريا حول عربات القوزاق ، وكانت نيران الحراسة توشك فى أى لحظة أن تخبو وتنطفىء ، وكان الحراس أنفسهم بعد أن ملأوا بطونهم بالثريد فى شهية قوزاقية قد استسلموا إلى سبات عميق ، ودهش أندريا من هذا الإهمال ، وفكر قائلا : إنه لمن حسن الحظ أن لا يوجد أناس أقوياء على مقربة منا ، نعم لا أحد نخشاه .

وتسلق إحدى العربات واستلقى على ظهره ، ووضع يديه تحت رأسه ، وعبثاً حاول النوم ، ثم نظر طويلا إلى السماء ، كان كل شىء أمامه واضحاً ، والهواء صافياً نقياً ، وكانت مجموعة النجوم التى تتكون منها المجرّة تتمنطق بها السماء وتفيض عليها بالضياء ، وكان أندريا بين الوقت والآخر يغيب فى إغفاءة خفيفة ، بينما يرى ضباباً رقيقاً يستر وجه السماء برهة إذا به ينقشع ويعود فيراها أمام عينيه فى جلاء .

وفى لحظة من هذه اللحظات ، مر أمام ناظريه طيف إنسان غريب ، وظن أن ذلك أضغاث أحلام ، ولكن ما لبث أن دقّق النظر فأبصر وجهاً ذاوياً ناحلا ينحنى عليه فعلا وعيناه تطلان فى عينيه ، كان ذلك الشبح كامرأة شعرها الفاحم المنسدل أشعث أغبر يتدلى من تحت قناع أسود يغطى رأسها ، وكان الوميض

البادى فى عينيها والدكنة الشبيهة بالموت تعلو وجهها الصارم الذى يشبه وجه الأشباح .

وبطريقة لا إرادية امتدت يده إلى بندقية قديمة ، وانطلق لسانه فى اضطراب يسأل من أنت ؟ إن كنت روحاً شريرة فاذهبى ، وإن كنت بشراً من الأحياء فإن هذا ليس وقت المزاح ، اذهبى وإلا قتلتك بطلقة واحدة !

وأجابه الطيف بأن وضع إبهامه على شفتيه كأنه يناشده الصمت ويتوسل إليه ، ورفع أندريا يده واقترب يتفرس فى هذه الرؤيا الماثلة أمامه فإذا به يكتشف من ملامحها أنها أنثى ، نعم ومن عنقها ومن صدرها نصف العارى .

ولكنها لم تكن من أهالى تلك البقاع ، فوجهها النحيل كان داكناً أغبر ، وعظام خدها العريض شديدة البروز فوق خدّها المتقلص ، وعيناها المقوستان الضيقتان رفعتا إلى أعلى ، وكلما دقق النظر فى ملامحها كلما زاد اقتناعاً بأنه قد سبق له رؤية هذه المرأة .

وأخيراً انفجر ساخطاً يسألها : « خبرينى من أنت ؟ يبدو لى أننى عرفتك قبلا أو أنى رأيتك فى مكان ما .

— منذ عامين فى كييف

— منذ عامين فى كييف !

وأخذ أندريا يردد هذا القول محاولا استرجاع الذكريات فى

حياته الماضية بالجامعة ، ثم نظر إليها مدققاً النظر وفجأة صاح بصوت عال : أنت المرأة التترية ! خادمة ابنة الحاكم ! وهمست التترية وقد شبكت يديها متضرعة وجسمها ينتفض : « صَهْ ! » وأدارت رأسها لترى إن كان قد صحا أحد على صوت أندريا العالى .

وفى همس مختنق تقطعه الانفعالات الداخلية ، قال أندريا : خبرينى ؟ خبرينى لماذا ؟ لماذا أنت هنا ؟ أين سيدتك ؟ هل هى على قيد الحياة ؟ وكيف حالها ؟

— إنها هنا فى المدينة .

وكاد يصيح مرة أخرى واندفع الدم إلى رأسه وقال :

— تقولين فى المدينة ! ولماذا هى فى المدينة ؟

— لأن السيد الكبير نفسه موجود فى المدينة ، فقد عينوه منذ عام ونصف عام حاكما على دوبنو .

— وهل تزوجت ؟ تكلمى ! ما أغربك ! وكيف حالها الآن ؟

— إنها لم تذوق طعاماً منذ يومين

— وكيف كان ذلك ؟

— إن أحداً بالمدينة لم يتناول كسرة من الخبز منذ وقت طويل ، إنهم لا يأكلون إلا الطين ! !

وبهت أندريا وعادت التترية تقول :

— لقد لمحتك سيدتى بين الزابورجيين من وراء أسوار

المدينة فقالت لى : « إذهبى وقولى للفارس يأتى إلىّ إن كان يتذكرنى ، فإن كان لا يتذكرنى فاسأليه كسرة من الخبز لأمى العجوز ، إننى لا أطيق رؤية أمى تموت جوعاً أمام عينى ، خير لى أن أموت من أن تموت هى ، توسلى إليه ، اركعى عند قدميه ، إن له أماً عجوزاً هو الآخر ، ليعطنا خبزاً من أجلها .

واتقد لهيب الانفعالات المتضاربة فى صدر الشاب القوزاق وعاد يسأل :

— ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ بأى وسيلة وصلت ؟

— بطريق الممر السفلى .

— وهل هناك ممر سفلى ؟

— نعم .

— أين ؟

— لن تغدر بى أيها الفارس ؟

— أقسم بالصليب المقدس . .

— إذهب إذن تحت ذلك الأخدود وأعبر القناة حيث ينمو البوص .

— وهل تصل هذه الطريق رأساً إلى المدينة ؟

— نعم رأساً إلى دير المدينة .

— فلنذهب فوراً .

— ولـكن باسم المسيح ومريم المقدسة هلا أعطيتنا كسرة من الخبز ؟

— حسناً لكِ ذلك . قفى عند هذه العربات ، بل من الأفضل أن ترقدى بداخلها حتى لا يراكِ أحد ، إنهم جميعاً نائمون . وسأعود على الفور . وذهب هو إلى العربات حيث تخزن المؤن الخاصة بجماعته وكان قلبه يخفق بشدة . إن الماضى كله الذى طرحه وراءه بسبب الحياة القوزاقية قد عاد ماثلا أمامه ، أما الحاضر فقد أعرض بدوره .

وظهرت أمامه هذه المرأة المعتزة بنفسها من جديد كما لو كانت قد خرجت من دياجير البحر العميق ، وشع فى ذاكرته جمال ذراعيها وعينيها وشفتيها الباسمتين وشعرها الـكستنائى المتهاوى خصلا على صدرها وكل جسدها اللدن البكر الذى خلق فى أحسن تقويم .

لا ! إن ذلك كله لم يتوار عن عينيه ، ولم يمت فى قلبه ، إنما حلّ محله الانفعالات الأخرى القوية فترة من الزمن ، أما الذكريات ؟ فـكم أقضت مضجع هذا الشاب القوزاقى ؟ كم صحا من رقاده وظل مسهد الطرف دون أن يعرف لذلك سبباً !

وأخذ قلبه كلما تقدم خطوة يشتد وجيباً واضطراباً وأخذت ركبتاه ترتعشان لمجرد تصوره أنه سيراها مرة ثانية . وعندما بلغ

العربة نسى ما جاء من أجله ، ورفع يده يحك جبينه ، محاولا استذكار السبب . وحينئذ تولته الرعشة والخوف من قمة رأسه إلى إخمص قدميه فقد صدمته فكرة أنها تموت الآن جوعاً ! ! ومرق كالسهم إلى إحدى العربات ووضع تحت ذراعه أرغفة كبيرة من الخبز الأسمر ، ولكنه عاد وفكر أن مثل هذه الأرغفة قد يقبلها بل يرحب بها ذوق فتية الزابورجيين ولكنها لا تناسب مطلقاً من كان فى مثل تكوينها الرقيق . وتذكر أن الرئيس فى الأمس قد أنّب الطهاة لأنهم استهلكوا جميع الحنطة السوداء فى عشاء واحد وكان يمكن أن تكفى ثلاث وجبات ! وأخذ وعاء أبيه واتجه إلى طاهى فرقته وهو واثق من العثور على كثير من الثريد متروكا فى القدور ، وكان الطاهى نائماً وإلى جواره قدران كبيران وكانت النار ما تزال تتقد تحتها ، ونظر إلى القدرين وشد ما دهش إذ رآها خاوية ، لا بد أن آكليها قد بذلوا جهداً جهيداً ليأتوا عليها ! سيما إن جماعتهم تقل عدداً عن جماعات الآخرين . ونظر إلى قدور الفرق الأخرى ، فإذا هى أيضاً خلاء ، ولم يسعه إلا أن يذكر المثل القائل : الزابورجيون كالأطفال إن كان معهم قليل فإنهم آكلوه وإذا كان عندهم كثير فلن يدعوا منه شيئاً .

ماذا يمكنه أن يفعل إذن ؟ ، على كل حال فإن فى إحدى عربات فرقة أبيه حقيبة من الخبز الأبيض عثر عليها فى مخبز الدير

عند نهبه ، وقصد توا إلى عربة أبيه ولـكنه لم يجد الحقيبة ! لقد وضعها أوستاب تحت رأسه وتمدد على الأرض وكان غطيطه يملأ الفضاء .

وأمسك أندريا بالحقيبة ودفعها من تحت رأسه ، فاصطدمت رأسه بالأرض وصرخ بأعلى صوته : « أمسكوا به ! أمسكوا بالشيطان البولندى . أمسكوا بالحصان . امسكوا به » .

وصرخ أندريا فزعاً : « اسكت وإلا قتلتك ! » ، ولم يكن ثمة ما يدعو إلى ذلك ، فقد انقطع الحديث وهوى أوستاب مرة أخرى على الأرض وأخذ يغط غطيطاً مزعجاً ارتعشت منه الحشائش التى تحيط به .

ونظر أندريا حذراً حواليه ليتحقق من أن هذيان أوستاب فى نومه لم يوقظ أحداً ، وارتفعت رأس ذات جدائل طويلة من الجماعة القريبة واستدارت ببصرها وما لبثت أن سقطت ثانية على الأرض .

وسكن قليلا ، دقيقتين أو ثلاثاً ، ثم انطلق يحمل حمله .... وظلت المرأة التترية راقدة لا تجرؤ على التنفس . . . . . وعاد أندريا يقول :

— تعالى ، قومى ، الـكل ينام فلا تخافى ، هل يمكنك أن تحملى عنى أحد هذه الأرغفة إذ لم أستطع أن أحملها جميعاً ؟

وعلق الحقيبة فوق ظهره بعد أن فرغ من هذه الـكلمات

وانطلق فى طريقه ثم عاد فأخرج حقيبة ثانية ملأى بالإذرة ، وأمسك بأرغفة الخبز التى كان يطلب من التترية أن تحملها عنه ، وبينما كان منحنياً تحت حمله إذ ارتطم بصفوف الزابورجيين النائمين .

وناداه بولبا العجوز إذ مرّ به : « يا أندريا ! ! »

وتوقف قلبه عن الخفقان ، ووقف ينتفض من رأسه إلى قدمه ، ثم قال وهو يكاد يغمى عليه : « ماذا ؟؟ » .

— إنك تصحب معك امرأة ، سأفرى جلدك عندما أستيقظ ، إن النساء لا يجلبن الخير .

واستند برأسه إلى ذراعه ، وأخذ يحدّق فى السيدة التترية المقنعة ، ووقف أندريا هنالك ، أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء ، لا يجرؤ أن ينظر وجه أبيه ، وما أن رفع عينيه ونظر إليه حتى رآه وقد غرق فى سبات عميق ، وكانت رأسه قد استندت إلى راحة كفّه التى رسم عليها شارة الصليب .

وطرد الخوف من قلبه بأسرع مما دخل فيه ، ولما استدار إلى التترية ألقاها واقفة أمامه ، يسترها قناع كثيف ، كأنها تمثال قدّ من الحجر الصوان ، وكان وهج النيران المشتعلة من بعيد لا يضىء سوى عينيها الساكنتين كأعين الموتى . وجذبها من كمّها وسارا سوياً فى حذر حتى بلغا أخدوداً عميقاً يجرى فى قاعة نهير تبرز منه نبات القصباء ويزخر قاعه بأكوام من الحشائش .

وإذ بلغوا قاع الأخدود ، كانوا قد ابتعدوا عن معسكر

الزابورجيين ، وألفى أندريا حينما نظر إلى الوراء الشاطىء وقد اختفى وراء جدار عميق وعلى سطحه تتموج جذوع الحشائش وفوقه يسطع القمر كأنه منجل حصاد مائل صنع من الذهب البرّاق النقى .

وهبت النسائم العليلة من السهل ، نذيراً وبشيراً بقرب بزوغ الفجر ، لـكن أصوات الديكة لم تكن لتسمع ، ذلك لأنه لم يبق ديك واحد منذ أمد طويل سواء فى المدينـة أو ضواحيها بعد أن أضحت يبابا . واجتازا النهير على كتلة صغيرة من الخشب ، وبدا الشاطىء المقابل أكثر ارتفاعاً وأشد ميلا وانحداراً .

وكان يبدو أن هذا الجزء هو حصن المدينة إذ كان قوياً ومحصناً تحصيناً طبيعياً فإن أسوار المدينة التى من الصلصال كانت واطئة ولا يكاد يرى أحد من الحامية خلفها ومع ذلك فقد كان يعلو من بعيد حائط الدير العريض ، وكان الشاطىء تكسوه صفوف البوص ، وفيما بين الشاطىء والمجرى داخل الأخدود الضيق نما البوص واستطال حتى أصبح فى ارتفاع قامة الإنسان . وعلى ذروة الشاطىء الصخرى يرى الرائى بقايا سياج مجدول كان يوما من الأيام يحوط حديقة نبتت أمامها أوراق عريضة من نبات الشوك وبرز من خلفها نبت الرمرام والحسك وعباد الشمس التى قامت ترفع رأسها على غيرها .

وهنا خلعت التترية نعليها ، ومشت عارية القدم ، تشمر إزارها

بعناية وحرص ، إذ كانت المنطقة مغطاة بالمياه كأنها مستنقع ، وبعد أن اخترقوا الطريق وسط أشجار البوص انتهوا عند كومة من الأغصان المقطوعة والأحطاب .

وزحزحا كومة الأغصان فرأيا وراءها مجازاً من الطين ، تنفذ إليه من فتحة لا تزيد اتساعا عن فرن الخباز ، وأحنت التترية رأسها وولجته أولا ، وتبعها أندريا محنياً ظهره قدر الاستطاعة ليتمكن من أن يجتازها هو والحقائب التى يحملها ، وسرعان ما غلفتهما الظلمة الحالكة .

الفصل السادس

وأخذ أندريا يتلمس طريقه فى الظلام ، فى النفق الضيق الطينى ، يتبع التترية وهو يحمل زكائب الخبز

وقالت الدليلة : عما قريب سنرى طريقنا ، فنحن مقبلون على المكان الذى تركت فيه مصباحى

وبدا ضوء ضعيف باهت يضىء الأسوار الطينية الحالكة ، وبلغوا ساحة صغيرة مكشوفة يظهر أنها تستخدم كخلوة فى المعبد ، وكان مقاماً بجوار الجدار مائدة ضيقة كالمحراب ، ومن فوقها صورة تكاد تكون مشوهة تماماً لمريم الكاثوليكية البتول ، وأمامها يتدلى مصباح منقوش بتماثيل الفضة ، ينعكس ضياؤه على الصورة .

وتوقفت التترية والتقطت المصباح الذى كانت قد خلفته هنالك على الأرض ، وكان المصباح من النحاس وله جذع مستطيل رفيع ، وبجواره مقص لقطع الفتيل ، ودبوس لتسويته ، وكير لإطفائه يتدلى من سلسلة . ورفعت المصباح ، وأضاءت المصباح القريب من الصورة ، وسطع الضوء أكثر من ذى قبل ، واستمرا فى السير الواحد وراء الآخر ، آناً يستضيئان بضوء

المصباح ، وآناً آخر تبتلعهما الظلمة الحالكة ، كما تبدو فى الصور الزيتية التى يرسمها الفنان جيراردو دى لانوتو .

وكان وجه الفارس الجميل يشعّ بالصحة العافية والشباب بينما كان وجه رفيقته ناحلا شاحباً ، فكان فى هذا تباين شديد ، وأخذ الممر فى الانفراج حتى استطاع أندريا أن يرفع هامته ، وأخذ يتطلع متفرساً فى الحوائط الطينية التى ذكرته بسراديب كييف .

وهنا — كما هو الحال فى سراديب كييف — ترى طاقات فى الحوائط توجد فى بعضها أكفان الموتى ، وترى فى البعض الآخر العظام الآدمية وقد أهلكتها الرطوبة وفتتها حتى بدت فى شكل مسحوق .

كان يبدو أن لفيفاً من أولياء الله الصالحين قد لجأوا إلى هذا المكان من أعاصير الحياة وأحزانها وأسباب فتنتها وغوايتها ، وكان بعض هذا المكان شديد الرطوبة حتى كنت ترى المياه أحياناً تحت الأقدام ، وكان أندريا يضطر كثيراً إلى التوقف عن السير ليتيح لرفيقته قسطاً من الراحة ، وكان الإعياء قد بدا على وجهها فى كل خطوة تخطوها .

كانت كسرة الخبز التى إزدرتها سبباً فى إيلام معدتها ، وكانت كثيراً ما تضطر إلى الوقوف بضع دقائق بلا حراك قبل أن تستطيع مواصلة السير مرة أخرى .

وأخيراً ظهر أمامها باب كبير من الفولاذ ، ونطقت التترية فى صوت واهن : الحمد لله الذى أوصلنا إلى هنا . ورفعت يدها تطرق الباب لـكن قواها خانتها ، وطرق أندريا الباب بقوة نيابة عنها ، وتردد صوت أجوف دلّ على وجود فضاء واسع فسيح خلف هـذا الباب ، وتغير صوت الصدى كما لو كان قد ارتد من أقباء عالية .

وبعد دقيقة أو دقيقتين سمع صوت المفاتيح وبدا شخص يهبط الدرج ، وأخيراً انفتح الباب ليستقبلهم كاهن وقف على سلم ضيق وفى يده مجموعة من المفاتيح وشمعة !

وتراجع أندريا برغمه عند رؤيته للـكاهن ، كانت رؤية الـكاهن تثير فى نفوس القوزاق البغضاء والاحتقار ، حتى إنهم عاملوهم بقسوة أشد من معاملتهم لليهود .

وفزع الـكاهن هو الآخر عندما أبصر قوزاقيا من زابورجى ، لـكن همسة مكبوتة من المرأة التترية أدخلت الطمأنينة إليه ، فأضاء السلم وأوصـد الباب من ورائهما وأوصلهما حتى وجدا نفسيهما تحت الأقواس العالية المظلمة فى كنيسة الدير .

وأمام المحراب كانت الشموع والشمعدانات ، وكان قسيس آخر راكعاً على قدميه يتضرع إلى الله فى صوت رقيق ، على ميمنته وميسرته يركع اثنان من مرتلى الترانيم الدينية ، يلبسان معاطف قرمزية محلاة بالخيوط البيضاء ويحملان المباخر فى أيديهم ،

وكان يتوسل إلى الله ويناشد المعجزة الإلهية أن تنقذ المدينة ، وأن يزيدهم الله قوة ، وأن يلهمهم الصبر ، وأن يلعن الوسواس الخناس الذى وسوس بالجبن إلى نفوس الناس وأغراهم أن يلمنوا نوازل الدنيا . وكانت النسوة كالأشباح راكعات يستندون بل ويحنين رؤوسهن إلى ظهور المقاعد والمساند الخشبية المواجهة ، وقد حلّ بهن إعياء شديد .

وركع قلّة من الرجال فى حزن وأسى ، يستندن إلى الأعمدة المتطاولة والقصيرة التى تقوم عليها الأقواس الجانبية .

وأخذ ضياء الصباح بلونه الوردى ينعكس من الزجاج الملون فوق المحراب وكذلك الأزرق الباهت والأصفر ، وسقطت قطع قرمزية من الضوء على سطح الأرض فأضاءت الكنيسة المظلمة .

وأصبح المحراب بأكمله ، فى مكانه المنعزل البعيد ، تملأه الضياء ، وكانت سحب الدخان تتصاعد من المباخر مصطبغة بألوان قوس قزح .

وأخذ أندريا يرنو ببصره من ركنه المظلم ، فى غير قليل من الدهش ، مأخوذاً بالأعاجيب التى صنعها النور والضياء . وفى تلك اللحظة امتلأت جنبات الكنيسة فجأة بأصوات الأرغن المجلجلة الجليلة ، وأخذت تزداد عمقاً ورنيناً ، متصاعدة متضخمة كأنها قصف الرعد . وعند ذلك تحولت فجأة إلى موسيقى ممتازة ، تتعالى أغانيها إلى أقواس السقوف عذبة كأصوات العذارى ، ثم ترتد فى

زئير عميق كالرعد ... ثم صمت كل شيء ... لكن الأصداء المرعدة المزبدة استمرت طويلا فى التدفق وكانت تتموج كأنها السيل ينهمر فى حنايا الدير .

ووقف أندريا فاغراً فاه ، وقد أخذ بسحر هذه الموسيقى وجلالها ، وعند ذاك أحس بجذبة من قميصه ، وإذا بالتترية تقول : لقد أزف الوقت !

واجتازا الكنيسة دون أن يراهما أحد وخرجا إلى الميدان الخارجى وكان الفجر البازغ قد لمست حمرته وجه السماء ، تبشر بالشمس الطالعة . . .

وكان الميدان المربع خالياً . وفى وسطه مازال بعض الأكشاك الخشبية ربما كانت تدل على قيام سوق للمؤن منذ أسبوع ، ولم يكن الشارع مرصوفاً شأن شوارع ذلك العصر ، وكان عبارة عن كومة من الطمى الجاف . وكان الميدان يحيط به منازل ذات دور واحدة وقد بنيت من الحجر أو الطين ، وكانت الحوائط تبرز للرائى وقد امتلأت بالنوافذ الخشبية المتشابكة من أعلاها إلى أسفلها .

وكان كل منزل من هذه المنازل يبنى نصفه من الخشب ، كان ذلك هو الطراز الشائع فى مدائن ذلك العصر ، وربما يمكن الآن مشاهدة مثيله فى بعض بقاع ليتوانيا وبولنده ، وكان يغطى هذه

البيوت سقوف مرتفعة ارتفاعاً غير عادى وفيها عدة شبابيك من الجالون ومساقط للهواء .

وإلى جانب الكنيسة مباشرة نهض بناء شاهق يتميز عن أمثاله ، قد يكون القاعة العامة للمدينة أو بناء حكومياً ، وكان مكوّناً من طابقين ويعلوه برج مقام على عمودين ، ويقف عنده حارس ، وقد ثبتت على سطحه وجه ساعة كبيرة .

وكان الميدان هادئاً وخيّل لأندريا أنه سمع صوت أنين ضعيف ، ونظر حواليه ليرى فى الناحية المقابلة شخصين أو ثلاثة أشخاص نائمين ولا حراك بهم ، وحدّق النظر إليهم ليدرك إن كانوا نياماً أو أمواتاً وتعثر فى شىء كان عند قدمه ، إنها جثة امرأة يظهر أنها يهودية ، لابد إنها كانت شابة ، ولو أن ملامحها المشوهة لم تكن تنم عليها ، وكان على رأسها منديل من الحرير الأحمر ويزين أذنيها صف مزدوج من حب اللؤلؤ وعلى جيدها المتقلص الذى امتلأ بعروق مشدودة عقد ذو حلقات ، وإلى جوارها طفل أمسكت يده المرتعشة ثديها الضامر الذى لا يجد فيه لبناً . وكان الطفل يمسك ثديها بأصابعه فى غضب لا طائل من ورائه ، ولم يعد يصرخ أو حتى يرفع صوته ، وإنما كانت معدته تعلو وتنخفض دلالة على أنه لم يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد .

وانحدرا إلى طريق ، استوقفهما فيه رجل مجنون ، وثب على أندريا كالنمر وقد رأى ما يحمله ، وأنشب أظفاره فيه صارخاً : خبز !

ولـكن قواه كانت دون جنونه ، فقد دفعه أندريا بعيداً ، وأخذ الرجل يتلوى على الأرض .

وألقى أندريا إليه رغيفاً مدفوعاً بعامل الشفقة ، فأمسكه وبدأ يقضمه ويمزقه كالـكلب المسعور . وعندئذ وفى هذه البقعة بالذات قضى الرجل نحبه بعد رجات وتشنجات عنيفة إذ كان قد ظل طويلا بدون غذاء .

وأفزعت أندريا الضريبة الفادحة التى دفعت ثمناً للجوع فى كل خطوة خطاها ، إن كثيرين لم يتحملوا العذاب داخل البيوت ففروا إلى الشوارع كما لو كانوا يتوقعون حدوث المعجزة أو يجدون الخلاص فى الهواء العليل ! !

وجلست عنـد بوابة أحد المنازل سيدة عجوز ، وكان من المستحيل أن يعرف أنائمة هى أم ميتة أم أنه قد أغمى عليها فقط ، فلم تعد تسمع أو ترى شيئاً على أقل تقدير ، كانت قد جلست لا تبدى حراكا وكان رأسها يميل على صدرها .

وظهرت على سطح منزل آخر جثة منكمشة معلقة بحبل ، لم يطق البائس المسكين تباريح الجوع حتى النهاية ، وآثر أن يعجل بنهايته ، فأزهق روحه عامداً بيديه !

لم يطق أندريا تلك المشاهد الأليمة الدالة على المجاعة فسأل التترية : « ألم يكن فى مقدورهم حقاً أن يجدوا شيئاً يطيلون به حبل حياتهم ؟ إن المرء ليضطر أن يركب الصعب ، إنه قد يستسيغ

ما كان يأنف منه ويتغذى من المخلوقات التى حرمها القانون ، بل من أى شىء يمكن أن يكون طعاماً ؟

وأجابت التترية : « لقد أكلوا كل شىء ، كل دابة ، فلا خيل ولا كلاب بل ولا جرذان فى المدينة كلها ، لم نكن نختزن شيئاً فى المدينة فقد كان كل شىء يجلب من القرى .

— كيف إذن تنتظرون النصر والخلاص وأنتم تموتون شر ميتة ؟

— إن رئيسنا أراد التسليم ولكن الكولونيل الموجود فى مدينة بودجاك أرسل إلى المدينة بازا يحمل رسالة يأمره فيها بعدم التسليم ، ويطمئن أهل المدينة بأنه مقبل لنجدتها ، وأنه ينتظر فقط ضابطاً عظيما آخر ليسيرا معاً . ولذلك نجد أهل المدينة ينتظرون قدومهما بين الوقت والآخر ، حسناً ... ها قد وصلنا إلى المنزل آخر الأمر .

وكان أندريا قد لمح عن بعد بيتاً ليس ككل البيوت ، يبدو أن مهندساً معمارياً إيطالياً هو الذى شيده ، كان مبنياً من الطوب الرفيع الجميل ويتكون من طابقين ، وكانت النوافذ فى الدور السفلى محاطة بكرانيش من صخر الجرانيت الفخم ، أما العلوى فكان مكوناً من جملة فتحات مقبية ، وفيما بينها نوافذ من الخشب المتشابك رسم عليه دروع حربية ، وزينت أركانها بالمينا ، وهبط منها سلم عريض من الطوب المدهون يؤدى إلى الطريق .

وفى مؤخرة هـذا البيت وقف حارسان فى زيهما المتجانس الجميل ، يقبض كل منهما بيده على رمح ويسند باليد الأخرى رأسه المتخاذل المائل ، كأنهما تمثالان لا مخلوقان من البشر ، لم يذوقا النوم ولم يحلما بل بدا أنهما لم يعودا يشعران بما حواليهما . لم يعيرا أى التفاتة إلى هؤلاء الصاعدين الدرج . وفى أعلى السلم وجدا محارباً يرتدى حلة ثمينة ، ومدججاً بالسلاح من قمة الرأس إلى إخمص القدم ، يمسك بيده كتاب «الأدعية» ، وصمّد بصره الكليل المتعب إليهما ، ولكن ما أن همست التقية بكلمة فى أذنه حتى أرخى البصر وعاود النظر فى الصفحات المفتوحة من كتاب « الأدعية » .

ودخلا الغرفة الأولى ، وكانت فسيحة تستخدم إما للاستقبال أو كديوان ملحق . وكانت مكتظة بالجنود والخدم ورجال الصيد وحملة الكئوس وغيرهم من رجال الحاشية ومستلزمات أصحاب المقامات العالية من الحكام البولنديين سواء أكانوا من ذوى الرتب العسكرية أو من أصحاب الضياع . وكانوا جلوساً فى أوضاع مختلفة بحذاء الحوائط ، وكان دخان الشموع المطفأة يتصاعد ، وبقى اثنان من الشموع فى شمعدانين كبيرين فى مثل قامة الرجل وسط الغرفة يحترقان رغم إشراق الصباح ونفاذ الضوء من خلال النافذة العريضة المكسوة بالحديد .

وتقدم أندريا نحو باب كبير من خشب القرو ، ممتلئ بالنقوش

البارزة والحفر ، ولـكن التترية جذبته من كمه ، وأشارت إلى باب صغير فى جدار جانبي ، وسلـكا من خلاله ممراً أدى بهما إلى غرفة أخذ يتفرس فيها متعجباً ، وانساب خيط رفيع من الضياء من ثغرة فى مصراعى الباب ، وانعكس الضياء على ستائر قرمزية ، ورفارف مذهبه ، وصور زيتية بالحائط .

وهنا أومأت التترية إلى أندريا أن ينتظر ، وفتحت باباً يؤدى إلى حجرة أخرى ينبعث منها ضوء الشموع ، وسمع همساً وصوتاً ناعماً ، جعله يرتعش . فقد لمح من خلال الباب الذى كان نصف مفتوح خيال غادة جميلة تتدلى على ذراعها المرفوع جدائل شعرها الطويل .

وعادت التترية إليه ، وأذنت له بالدخول ...

أما كيف دخل ، وكيف أوصد الباب وراءه ، فذلك مالم تعيه الذاكرة ! كان بالحجرة شمعتان مضيئتان ، أضاءتا إحدى الصور بضوء ذابل ، وكانت هناك مائدة مستطيلة ذات درج يركع عليها عند أداء الفرائض أو الدعاء لله . ولـكن عينيه لم تر شيئاً من ذلك ! فقد استدار ليرى سيدة بدت كأنها تجمدت من الثلج أو تحولت إلى حجر أصم . وفى حركة انفعال نفسانى بدا كما لو استوقف جثمانهما وكيانهما شيء فجأة ، هى فى سبيل أن تثب إليه وهو وقد وقف بدوره مشدوهاً قبالتها . فلم يدر بخلده أن يراها فى هذه الحال ، فلم تعد هى بذاتها الفتاة التى عرفها من قبل ،

لقد تغيرت تماماً عما كانت ، زاد جمالها سحراً وأصبح ضعفى ما كان عليه ، لكن شيئاً ظل منقوصاً ، غير مكتمل . إنها الآن كصورة جميلة مرت ريشة الفنان الأخيرة عليها ، لقد كانت فيما مضى فتاة طائشة ، أما الآن فإنها امرأة فى جمال الزهور ، تضىء عيناها المرفوعتان وتلمع بإحساسات النضوج ، لا أحاسيس مبهمة بل مشاعر كاملة . ولم تكن قد جفت مآقيها ، ما تزال عيناها مغرورقتين بجمان الندى ، تتساقط من فورها إلى قلبك ! وكان صدرها وجيدها وكتفاها قد اكتملت محاسنها ، أما شعرها الذى كان من قبل يتماوج على وجهها فى جدائل خفيفة فقد غدا كثيفاً طويلا ، ضفرت منه جانباً ورشقته بالمشابك إلى رأسها بينما استرخى الباقى على صدرها ملفوفاً جذاباً حتى بلغ إبهام يدها . لقد بدا أنها تغيرت تغييراً كاملا شاملا ، عبثاً حاول أن يعرف فيها ملامح الماضى التى طالما ارتسمت فى مخيلته .

ومع أن الضعف والذبول قد أخذا منها كل مأخذ إلا أن ذلك لم يحجب جمالها الفتان ، بل زاده إغراء ومنعة يشوبهما كبرياء !

أما أندريا فقد تملكته الرهبة ووقف أمامها مسحوراً ، وبدت هى الأخرى مدهوشة برؤية هذا القوزاق الذى وقف أمامها مكتمل الشباب ، غض الإهاب ، وبالرغم من عضلاته القوية التى تساعده فى الحركة فى يسر وسهولة فإنه بدا لا يريم حراكا ، وكانت نظرته المركزة عليها تضىء بلهب صاف وحاجباه الكثيفان

ينحنيان فى تقوس شديد وخداه التى لفحتهما الشمس تشعان بوميض الشباب المتقد ، وشاربه الأسود الصغير ناعماً كالحرير .

وتكلمت وصوتها فى رنين الفضة يتهدج : لا ! إنه تعوزنى القوة ، القوة فى أن أشكرك أيها الفارس الكريم . إن الله وحده هو الذى يقدر أن يجزيك عنى . ما أنا إلا امرأة ضعيفة لا حول لها .

وأرخت عينيها وأسبلت جفنيها كنصف دائرة من الجليد ترشقه رموشها الطويلة كالسهام .

ومال وجهها الجميل إلى الأمام تكسوه حمرة رقيقة من الخجل والحياء .

أما أندريا فلم تسعفه الكلمات ... كان يحن لإزاحة عبء عن صدره ويتكلم بخلجات نفسه التى تحرق فؤاده ، ولكنه لم يستطع . لقد أحس بشىء كالعقدة فى لسانه ، لم تكن لكلماته رنين ، وكان يحس بأنه قد ربى وترعرع فى الجامعة ودخل فى غمار الحياة من هجرة وحروب ، لا يليق به أن ينطق بهذه الأحاسيس ، ولعن طبيعته القوزاقية .

وتسللت التترية فى ذلك الوقت إلى الحجرة ، وكانت قد قطعت الخبز الذى أحضره الفارس قطعاً صغيرة ، وحملته على صفحة مذهبة ، ووضعته أمام سيدتها .

ونظرت الغادة الحسناء إليها وإلى الخبز ، ثم رفعت عينيها

إلى أندريا ، فتجمع فيهما عالم من الأحاسيس والمشاعر . كانت نظرتها تترجم عن ألم بالغ لعجزها عن التعبير عن أحاسيسها .

وفهم أندريا بالجنان أكثر منه باللسان ، لقد انزاح العبء عن صدره ، وكأنه قد فك من عقال .

أما مشاعره ودوافع نفسه التى كانت ما تزال مكبوتة ، فقد انطلقت أيما انطلاق ، كانت تريد أن تندفع فى سيل دافق من الكلمات .

بيد أن الحسناء التفتت على حين غرة إلى التتريه وسألتها متلهفة :

« وأمى ؟ ؟ هل حملت بعضاً منه إليها ؟ »

— إنها نائمة

— ولأبى ؟

— نعم ، ولقد قال إنه سوف يحضر بنفسه ليشكر الفارس .

وأخذت الفتاة قطعة من الخبز وقربتها من شفتيها ، وأخذ أندريا يرقبها مفعما بالسرور بينما كانت تقطعها بأسنانها اللؤلؤية ثم تزدردها . وفجأة تخيل صورة الرجل الذى جُنَّ من الجوع ثم قضى نحبه بسبب ازدرائه قطعة من الخبز ، فامتقع لونه وقبض على يديها صارخا : « كفى ، لا تأكلى مزيداً ! أنت لم تأكلى منذ حين ، والخبز لك الآن كالسم » .

أزلت يدها على الفور ، كالطفل الوادع المطيع ، ونظرت

فى عينيه . آه لو عبّرت الكلمات عن هذه النظرة ! بل إن ريشة الفنان وإزميل الصانع المبدع وفصاحة سحبان كل أولئك كانت تعجز عن الإفصاح عما يرى فى عينى العذراء أو عن الانفعالات التى تخالج الفتى المتطلع إلى عينيها .

وصاح أندريا وقلبه وروحه وكيانه جميعاً يجيش بالعواطف : « ياملیكتى ، ماذا تريدين ؟ مُريني ! كلفيني بأشق وأصعب المهام فى العالم طرا ، وأنا لها ولو مت فى سبيلها . نعم سوف أفعل ، فالموت من أجلك أعذب الأشياء . أقسم على ذلك بالصليب المقدس . نعم ما أعذبه ! إنى أملك ثلاث قرى ونصف قرية وقطعاناً من الخيل تملكها أمرتى ، وكل ما جلبته أمى لأبى ، بل وما تخفيه عنه ... وساعدى الذى لا يملك قوزاق مثله ومقبض نصلى الذى يساوى أجمل قطيع من الماشية وثلاثة آلاف رأس من الأغنام ... كل أولئك سأنزل عنها جميعاً سأتخلى عنها . . . سأحرقها ... سأغرقها ... بكلمة واحدة منك ، بحركة واحدة من حاجب عينيك الفاحم الجميل .

إنى أعلم أن حديثى هـذا هراء ، وفى غير أوانه ، وفى غير موضعه .. كان يجب بعد أن تلقيت العلم فى الجامعة وبعد أن عشت مع الزابورجيين أن أنطق بكلم الملوك والأمراء وزهرة الفرسان النبلاء ... ولـكنى لا أرى كفواً لك بين خلق الله طرا وبين جميع النساء والعذارى من بنات النبلاء . . . إننى لست جديراً بأن

أكون من عبيدك ، إنما ملائكة السماء وحدها هى الجديرة بأن تقوم على خدمتك .

واستمعت الفتاة فى دهشة بالغة ، وكلها آذان صاغية لم يسقط منها كلمة واحدة ، إلى خطابه الملتهب الذى كان كالمرآة تعكس روحاً قوية فتية . كانت كلماته ترن بقوة وهى تنطلق دفاعاً سراعاً من أعماق أعماق قلبه .

ورفعت الفتاة وجهها الجميل نحوه ، وطرحت جدائل شعرها المتعبة إلى الوراء ، وحدقت النظر فيه طويلا وقد انفرجت شفتاها ، وكادت أن تتكلم ولكنها منعت نفسها فجأة عندما تذكرت أنه شاب زابورجى ، وأن أباه وإخوانه وبلاده كلها يقفون من ورائه أعداء ألداء لهم ، وأن حصار الزابورجيين للمدينة كان عنيفاً ، وأن الموت الشنيع ينتظر سكانها جميعاً داخل أسوارها .

وفجأة طفر الدمع فملأ عينيها ، وأمسكت منديلا من الحرير المطرز تمسح به وجهها وسرعان ما بللته الدموع ولبثت فى جلستها هذه طويلا ، كان رأسها الفاتن ملقى إلى الوراء ، وأسنانها الناصعة البياض من تحت شفتيها الجميلتين كأنما لدغتها حية رقطاء ، وحجبت وجهها بمنديلها كى لا يلمح حزنها الشديد .

وأمسك أندريا بيدها الناعمة وقال : « حدثينى ولو كلمة واحدة ! » وسرت النار فى عروقه حين لمس يدها وضغط عليها

دون أن يشعر . ولكنها ظلت صامتة ، والمنديل على وجهها ، وبقيت جامدة بغير حراك .

— ولكن بربك لماذا أنت هكذا حزينة ؟ خبريني لماذا أنت هكذا حزينة ؟ وألقت الفتاة بالمنديل بعيداً ، وأزاحت شعرها المسبل على عينيها ، وانفجرت فى أسى وحزن ، تنطق الكلمات فى صوت خافت هادئ .

كانت كالنسيم يهب فى ليلة ناعمة ! يتسلل بين نبات الحلفا الكثيف النامى فى الماء ، وروح الكآبة تشقشق وتهمس ، وعابر السبيل يمشى وئيداً فى حزن يفوق الوصف كأنما يرهف بأذنيه ليسمعها وهى تتحدث ، لا يعبأ بالغروب الزائل ولا بالأناشيد المرحة التى يرددها القرويون العائدون بعد الحصاد من الحقول ولا بقعقعة العربات العابرة .

— ألست جديرة بالإشفاق الدائم ؟ أليست الأم التى حملتنى شقية ؟ أليس حظى تعيسا ؟ أيها القدر القاسى إنك تعذبنى فى غير رحمة . . لقد وضعت كل شىء تحت أقدامى : أرفع النبلاء ، أغنى اللوردات والكونتات والبارونات ، زهرة الفرسان جميعاً ... الكل يحبنى . . يحسب أى واحد منهم أن حبى هو النعمة الكبرى ، يكفى أن ألوح بيدى لأيهم ، أعظمهم جمالا ومنبتاً فيكون لى بعلا ... لكنك أيها القدر لم تشأ أن تفتن قلبى بأيهم

ولا بأحد من خيرة محـاربى هذه الأرض ، إنما فتنته بأجنبى ، فتنته بعدوّ لنا .

أى ذنب جنيت يا ذات الجلال ، يا عذراء ويا أم المسيـح !! لأى ذنب ولأى جرم تقتص منى يا رب بلا رحمـة ولا شفقة ؟ لقد قضيت أيامى غنية وسعيدة ، آكل ألذّ اللحوم وأشرب أشهى الأنبذة ، ثم ماذا بعد ذلك ؟ إنى أموت أشنع ميتة لا يلقاها أحقر متسوّل فى البلاد ، لم يكف أن يكون هذا المصير الفظيـع لى مقدوراً ، لم يكف أن أرى قبل نهايتى أبى وأمى يموتان فى عذاب لا يطاق ، وددت أن أفتديهما بالروح عشرين مرة ، لم يكف كل هذا ، ولـكنى قبل خاتمة المصير أسمع حديثاً وأرى حباً لم أحلم بمثيله من قبل . إن قلبى ليتقطع نياطه عند سمـاعه ، وإن حظى العاثر لتزداد مرارته فى الإنصات إليه . ينبغى أن أندب شـبابى طويلا ولـكن موتى ينبغى أن يكون فظيعاً ، يجب أن أعنفك أيها القدر إذا مِت ، كما يجب أن أعنفك أنت أيضا ... غفراناً لذنبى يا ذات الجلال يا أم المسيح .

وتوقفت عن الحديث وبدا على وجهها عـلامات الضعف واليأس ، كانت ملامحها تنطق بالحزن الذى يحز فى النفس حزاً ، وكان كل شىء فيها — من حاجبها الهابط الحزين وعينيها المطرقتين والمبللتين بالدموع التى كانت تجف على خديها الناعمين — يقول : « ليس فى هذه الروح مكان للهناء » .

وصاح أندريا : إن شيئاً من ذلك لم يسمع من قبل قط ، لا يمكن — ولا يجوز أن يكون — أن تعانى سيدة النساء وأجملهن طراً مثل هذا المصير القاسى فى حين أنها ولدت لكى ينحنى أمامها خير من فى العالم كما ينحنى أمام كائن مقدس . كلا ! إنك لن تموتى ، ليس لمثلك أن يموت ، أقسم بمولدى وبكل ما أحبه فى هذا العالم أنك لن تموتى . أما إذا حدث ذلك ولم تجدِ القوة والدعاء والصلاة والشجاعة فى رد هذا المصير القاسى فسوف نموت معاً ، سأموت أنا أولا ، سأموت مثلك ، عند قدمك الناعمة ، ولن يفرقنا سوى الموت .

وأجابته وهى تهز وجهها الناعم فى لطف : « لا تخدعنّ نفسك أو نفسى أيها السيد الفارس ! إنى أعرف . ما أشد حزنى . إنى أعرف جيداً أنك قد لا تحبنى .. إنى أعرفك جيداً وأحبك . وأعرف أن أباك وأقرانك ووطنك وعقيدتك ينادونك ... وأعرف أيضاً أننا أعداؤكم .

وأجاب أندريا بحركة سريعة من رأسه ، وقد تمطى كشجرة الحور على ضفاف النهر : « وما هو أبى وأقرانى وأوطانى بالنسبة لك ؟ لئن بلغ الأمر هذا الحد فإنى لا أود أن أعرف منهم أحداً » . وأخذ يردد ذلك بنفس الصوت والحركات التى يعلن بها القوزاق القوى الجرىء عن عزمه أن يصنع المستحيل الذى لم يسمع به من قبل :

« من الذى قال أن أوكرانيا وطنى ؟ من الذى أعطانيها وطنى ؟ إن أوطاننا هى التى تحنو إليها أرواحنا ، هى العزيزة علينا ... أنت . . نعم أنت وطنى ! وطنى الذى سأحمله فى قلبى ، سأحمله ماعشت حيا ، وإنى لأتحدى أى قوزاق أن يعتدى عليه . من أجل هذا الوطن سأغير وأستسلم وأحطم كل ما تملكه يداى » .

واستحالت الفتاة إلى حجر وكأنها تمثال رائع ، وحدّقت النظر فى عينيه ثم انفجرت باكية ، وعن ذاك الاندفاع النسوى العجيب الذى لا يقدر عليه سوى سيدة كريمة — ولدت لأنبل الأحاسيس — ارتمت على عنقه تضمه بذراعيها الناصعتين الجميلتين ، وأخذت تتنهد بصوت مسموع .

وفى تلك اللحظة سمعت من الطريق صيحات مكتومة ، مختلطة بأصوات النفير والطبول . ولكنه لم يسمع أيا منها ، لقد أحس فقط بشفتيها الجميلتين تغرقانه بحرارة أنفاسها العذبة ، وأن دموعها تسيل على وجهها ، وأن شعرها العطر العبق المسترسل من فوق رأسها قد لف فى حرير ناعم فاحم .

ودخلت التترية مسرعة تعلن فى فرح : لقد نجونا ، لقد نجونا . وتصيح بملء فيها : لقد دخلت جنودنا المدينة وجلبوا معهم الحنطة والأذرة والدقيق وأسرى من الزابورجيين .

ولـكن أحداً منهما لم يسمع أى الجنود دخلوا المدينة ؟ ولا ما جلبوه معهم ؟ ولا أى أسرى كانوا معهم ؟ لقد امتلـكتهما أحاسيس لم تنعم الدنيا بمثلها .

وقبّـل أندريا الشفتين الرقيقتين اللتين لمستا خده ، ولم تـكن الشفتان غير متجاوبتين ، لقد ردتا على القبل بالقبل .

وفى تلك القُـبلة المتبادلة أحسّ كل منهما أنه قد منح ما لا يمنح لبشر إلا مرة واحدة — أحسّـا بالخلود .

وافتقد القوزاق ! افتقد بين فرسان القوزاق ! لن يرى بعد الآن زابورجى وقُرى أبيه وكنيسـة إلهه ! وأوكرانيا أيضاً لن ترى أشـجع بنيها فى الوغى والذى آلى ليدافعنّ عن الذمار . وسوف يمزق بولبا العجوز شعره الأشيب ، وسوف يلعن اليوم والساعة التى ولد له فيها ولد يجلب إليه العار . .

الفصل السابع

وانتشرت الأصوات وعجّت الحركة فى معسكر الزابورجيين ، لم يدر أحد فى البداية كيف دخل الجنود إلى المدينة ، ثم تبين فيما بعد أن أبناء قبيلة بيريسلاف المعسكرة بجوار البوابة الجانبية للمدينة كانوا قد أفرطوا فى الخمر والشراب ، فلم يكن عجيباً ألبتة أن قُتّل نصفهم وأسر النصف الآخر قبل أن يدركوا ماذا حدث ! !

وعندما انتبهت القبائل المجاورة على الأصوات ، واستلّوا أسلحتهم ، كان الجند قد اجتازوا البوابة . وكانت مؤخرتهم تضرب بنيرانها الزابورجيين النائمين وأنصاف السكارى الذين هبوا مندفعين فى غير نظام . وأمرهم الرئيس أن يتجمعوا ، وحين اكتمل جمعهم عراة الرؤوس فى شكل حلقة ، ساد الصمت ، وبدأ خطابه :

سادتى ، إخوانى : ها أنتم ترون ما حل بنا هذه الليلة . ها أنتم ترون ما أدى إليه الإدمان على الشراب ، لقد أنزل بنا العار ، هذا هو طرازكم أيها القوم : إذا ضوعف نصيبكم من الفودكا أقبلتم على احتسائها حتى الإدمان ، وبذلك يستطيع أعداء المحاربين المسيحيين أن يبصقوا فى وجوهكم دون أن تشعروا ،

بل إنهم ليستطيعون أن يخلعوا سراويلكم دون أن تحسّوا .

ووقف القوزاق غاضين أبصارهم شعوراً منهم بذنبهم ، ولم يرد عليه سوى زعيم قبيلة نظامى : رويدك أيها الرئيس ، لئن كان غير مشروع ان نرُد حين يتكلم الرئيس الأكبر فى حضرة الأجناد ، إلا أننى سأتكلم لأن الأمر لم يكن على النحو الذى ذكرت ، إنك لم تكن عادلا فى توجيهك اللوم لهذا الجيش المسيحى . إن القوزاقيين كانوا يستحقون الموت لو أنهم شربوا وثملوا أثناء المسير أو خلال المعركة أو أثناء تأديتهم مهمة شاقة .. ولكننا امضينا الوقت نتسكع ونتلكأ حول المدينة .. لا صيام ، ولا قيام برياضة دينية مسيحية ، كيف إذن يطلب ألا يشرب أحد فى هذا الفراغ ... لا جريمة فى ذلك . ولنبرهن لهم الآن أنهم لن يستطيعوا الهجوم علينا . . .

لقد هزمناهم من قبل ، ولسوف نهزمهم الآن ، ولن ندعهم ينجون بجلودهم .

وسُرّ القوزاق بخطاب زعيم القبيلة ، ورفعوا رؤوسهم التى كانت منكسة ، وهز بعضهم رؤوسهم استحساناً منادين : « لقد تكلم كوكوبنكو وأحسن القول » .

وكان تاراس بولبا يقف بالقرب من الرئيس وقال : ما قولك الآن أيها السيد الرئيس ؟ إن كوكو بنكو قد نطق بالصدق . فما قولك فى هذا ؟

— ماذا أقول ؟ أقول إن أباه رجل سعيد الطالع ، ذلك الذى أنجب مثل هـذا الإبن . إن توجيه عبارات التأنيب لا تحتاج إلى حكمة بالغة ، ولـكن أمثال ذلك الـكلام الذى لا يثير مرارة النفوس وقت الشدائد ، بل يشجعها ويحفزها إلى الجرأة — كما يحفز المهماز الجواد بعد انتعاشه بالمـاء — فذلـكم هو الحـكمة البالغة . لقد كنت أوشك أن أوجه إليكم عبارات التشجيع ، ولـكن كوكو بنكو كان أسرع بديهة .

وقالت بعض الصفوف بين الزابورجيين : « لقد أحسن الرئيس القول » ، وانضم إليهم آخرون : « مقالة صائبة » ، وحتى أشيبهم رؤوسا هزوا شواربهم الفضية وقالوا بلطف : « حسنا ما قالوا » .

واستمر الرئيس : اسمعوا أيها السادة . إن الاستيلاء على الحصن — لعنة الشيطان عليـه — بواسطة تسلـقه أو نسفه كما يفعل الألمان ليس عملا لائقا بالقوزاق ، ولـكن إذا حكمنا على الأشياء حكما سليما فإن العدو دخل المدينة بدون مؤن كافية وليس معه عربات كثيرة . وسكان المدينة جياع وسوف يلتهمون كل شىء على الفور . أما الخيل فإنى لا أدرى ماذا سيفعلون بالدريس اللهم إلا إذا كان أحد القديسين سينزلها عليهم من السماء وقساوستهم ذربو اللسان وسيطلعون خارج المدينة لسبب أو لآخر ، فعليكم إذن أن تنقسموا إلى ثلاث فرق ، وأن ترابطوا عند الطرق الثلاث ، واتجاه البوابات الثلاث . خمس قبائل أمام البوابة الرئيسية وثلاث أخريات عند كلّ من باقى البوابات .

إن قبيلتى ديا كيف وكورسون سيكونان كمينا . كولونيل تاراس سوف يذهب ويكمن مع فرقتـه . وقبيلتى تيتا ريفكا وتيمو شيفكا سيكونان الاحتياطى ، وسيقفان عن ميمنة قطار البضاعة ، أما قبيلتى شيربينوف وستيبليكيف العليا فيقفان عن ميسرة ، ثم ندع هؤلاء اللاعين من ذوى الألسـنة الحداد يتصدون لمشاكسة العدو ، والبولنديون صغار الأحلام بطبيعتهم ، فلن يتحملوا سخريتكم ، وربما برزوا من البوابات إليكم . وعلى رؤساء العشائر أن ينظروا إلى قبائلهم ، فمن يجد صفوفا خلت فعليه أن يشغلها ببقايا قبيلة بيريسلاف : انظروا إلى كل شىء . اعطوا كل فرد رغيفاً من الخبز وكأساً من الفودكا لتجلوا أذهانهم ، ومن المؤكد أن كل فرد منكم ما زال ممتلىء البطن من الأمس ، فالحق القول لقد حشوتم بطونـكم ، حتى إنى لأعجب كيف أن أحداً منـكم لم ينفجر أثناء الليل .

وإليكم أمراً آخر : إذا باع أحـد أصحاب الحانات اليهود ولو كأساً واحدة من الفودكا لقوزاقى لأشدّن اذن خنزير وأثبتنها فى جبهته ولأصلبنّـه من رجليه .

والآن هيا إلى العمل أيها الأخوان ! إلى العمل !

وهكذا أصدر الرئيس الأوامر ، وانحنى الـكل طاعة له ، وتوجهوا عراة الرؤوس إلى عرباتهم ومخيماتهم . ولم يستروا رءوسهم إلا بعد أن قطعوا شوطا طويلا وبدأوا يتأهبون ويختبرون

خناجرهم وسيوفهم ، صبوا البارود من الزكائب إلى فرن البارود ، وانسحبوا ليرتبوا عرباتهم ويفتخبوا جيادهم .

وكان تاراس طوال الطريق وهو عائد إلى فرقته يتساءل عما وقع لأندريا ؟ ترى هل وقع فى الأسر مع الآخرين الذين قيّدوا قبل أن يستيقظوا ؟ ولكن لا . فإن أندريا ليس بالرجل الذى يؤخذ أسيراً وهو حى ، وكذلك لم يكن بين القوزاق المذبّحين ، إن تاراس قد تاه فى التفكير أثناء مسيره على رأس فرقته ، حتى إنه مضى وقت طويل قبل أن يسمع مناديا ينادیه باسمه ، وأجاب منتبها فى النهاية : « من الذى يريدنى ؟ » . وإذا باليهودى يانكل يقف أمامه ويصيح فى صوت سريع متقطع كما لو كان يريد أن يفصح عن أمر ذى بال : « سيدى الكولونيل . سيدى الكولونيل ! لقد كنت فى المدينة يا سيدى الكولونيل » .

وحملق تاراس فيه دهشاً ، كيف أفلح هذا اليهودى فى الولوج والخروج من المدينة ، وقال : أى شيطان ساقك إلى هناك ؟

وأجابه يانكل : سأخبرك فوراً فى هذه الدقيقة : بمجرد أن سمعت ذلك الضجيج عند بزوغ الصبح وبدأ القوزاق يطلقون النيران ، اختطفت ردائى وهرولت مسرعا دون أن أتوقف لألبسه ، وأدخلت أكمامى أثناء الطريق إذ رغبت أن أعرف أسباب تلك الجلبة ولماذا أطلق القوزاق النيران عند الفجر .

فعدوت حتى بوّابات المدينة فى الوقت الذى كان فيه آخر جندى يدخل المدينـة ، وكان أمام الجند حامل النفير جالندوتيز ، وهو من السادة النبلاء الذين أعرفهم ومن المدينين لى بمـائة درهم ، فعدوت وراءه كما لو كنت أطالب بدينى ، وبذلك دخلت إلى المدينة معهم .

وسأل بولبا : كيف ذلك ؟ أنت دخلت المدينـة ؟ وكنت تطالب بدين لك ؟ ولم يأمر بشنقك كالكلب على الفور ؟

وأجاب اليهودى : أقسم بالسموات أنه كان يريد شنقى . لقد قبض علىّ أتباعه ، ووضعوا القيد حول عنقى ، ولـكنى توسلت إلى السيد أن يعفو عنى ، وقلت له إنى سأنتظر على الدين إلى الموعد الذى يريده هو ، ووعدت بأن أقرضه مزيداً من المـال ، إذ كان السيد حامل النفير صراحة لا يملك فلساً واحداً فى جيبه .

وبرغم ما يملك من قرى وقصور وقلاع تبلغ الأربعة ومراع ممتدة حتى قرابة سـكاو فإنه لم يكن معه من النقود ما يزيد على ما يمتلـكه أى قوزاق ، أعنى مفلساً لا يملك فلساً واحداً . ولو لم يكن يهود بريسلو قد جهزوه بعتاده ما كان قد وجد ما يذهب به للحرب ، ولهذا السبب لم يذهب إلى مجلس النواب ! !

— وماذا فعلت إذن فى المدينـة ؟ هل رأيت أحداً من رجالنا ؟

— بالتأكيد ! هناك كثير من رجالنا : إسحق ورحوم

وصمويل وهايفالوه واليهودى المستأجر للأرض .

وصاح تاراس فى ثورة من الغضب : لعنة الله عليك أيها الكلب . ماذا يعنينى من أمر يهودكم ؟ إنما سألتك عن أولادنا الزابورجيين .

— أنا لم أر الزابورجيين وإنما رأيت سيدى أندريا فقط .

وصاح أندريا :

— وهل رأيت أندريا ؟ حسناً أيها اليهودى . وأين رأيته ؟ فى سجن مظلم ؟ فى حفرة مهيناً موثقاً ؟

— ومن ذا الذى يجرؤ أن يوثق سيدى أندريا ؟ إنه الآن فارس عظيم ، أقسم بالسماء لقد عرفته بصعوبة ، على كتفيه شارات من الذهب ، ودرعه كله من الذهب ، وخوذته أيضاً من الذهب ، وكل شىء يلبسه من الذهب ، وكل ما يلمع فيه من الذهب . إنه يتوهج كالشمس فى فصل الربيع عند ما تزقزق الطير وتغرد فى الحدائق وتفوح رائحة الأزاهير النضرة بأريجها العطر . وقد أعطاه الحاكم أكرم جياده ، وهذا الجواد يساوى وحده مائتى دينار .

وجمد بولبا وقال :

— ولكن لماذا أرتدى هذا الزى العسكرى الأجنبى ؟

— لأنه أروع . وهو يجول كما يجول الآخرون ، وهو

يعلّمهم وهم يعلمونه ، كأنه أعظم السادة البولنديين ثراء .

— ومن الذى اضطره إلى ذلك ؟

— لا أقول إن أحداً أرغمه .. ألا يعلم سيدى أنه ذهب إلى هناك بمحض إرادته ؟

— من الذى ذهب هناك ؟

— ماذا ؟ إنه سيدى أندريا !

— أين ذهب ؟

— ذهب وانحاز إلى جانبهم . إنه الآن واحد منهم .

— أنت تكذب يا . . . خنزير

— أنّى لى أن أكذب ؟ وهل بلغ بى البله لأن أكذب عليك ؟ هل أكذب وأخاطر بقطع رأسى ؟ ألست أعلم أن اليهودى الذى يكذب على سيِّد يشنق كالكلب !

— معنى كلامك إذن أنه باع وطنه ودينه ؟

— أنا لا أقول إنه باع أى شىء ، وإنما أقول إنه ذهب إلى الجانب الآخر .

— أنت تكذب أيها اليهودى اللعين ! لم يحدث قط على الأرض المسيحية شيئاً من ذلك ! أنت تكذب أيها الكلب الحقير .

— لتنمُ الحشائش على عتبة منزلى إن كنت أكذب ! ليبصق كل واحد على قبور أبى وأمى وجدّى وجدى لأبى وجدى لأمى إن كنت أكذب . بل أنا مستعد أن أقول لماذا ذهب ولحق بهم ؟

— لماذا ؟

— إن الحاكم له ابنة رائعة الجمال . سبحانك ربى ! ما أروع جمالها .

وحاول اليهودى قدر طاقته أن يعبر بقسمات وجهه عن الجمال ، فنشر ذراعيه ، وزرّ عينه ، ولوى فمه كما لو كان يتذوق شيئاً لذيذاً .

— حسنا ثم ماذا ؟

— لقد فعل كل شيء وتوجه إلى هناك من أجلها . إن الرجل إذا وقع فى الحب يكون كنعل الحذاء بلله الماء ، فهو ينثنى معك كيفما تشاء .

واستغرق بولبا فى التفكير . ذكر أن المرأة الضعيفة ذات قوة وشأن ، وأنها كم أهلكت من الرجال الأشداء ، وأن أندريا كان بطبيعته معرضا لسحرها وإغرائها . وظل طويلا واقفاً لا حراك فيه ، كأنه تسمر فى الأرض .

واستأنف اليهودى : استمع لى ياسيدى . سأقول لسيدى كل شيء . ما أن سمعت بالجلبة والضوضاء ورأيتهم يدخلون بوابات المدينة ، حتى أخذت عقداً من اللآلئ قدّرت أنه قد ينفعنى ، فى المدينة الفتنة والجمال وكرم الأصل ، وقلت لنفسى حيثما يوجد الجمال وكرم المحتد يوجد الذين يشترون اللآلئ حتى ولو لم يكن عندهم ما يأكلون . ولهذا ما أن أطلق رجال حامل النفير سراحى

حتى أسرعت إلى ساحة الحاكم لأبيع لآلئ ، وعرفت كل شيء من لسان خادمة تترية هناك . سوف يتم الزفاف فى الدقيقة التى يطردون فيها الزابورجيين . ولقد وعد سيدى أندريا أن يطرد الزابورجيين وأن يقذف بهم بعيداً .

وزأر بولبا :

— وأنت — لم لم تقتل ابن الشيطان على الفور ؟

— ولماذا يُقتل ؟ لقد ذهب بمحض إرادته . وأى جرم ارتكب ؟ إنه رأى من الخير أن يكون هناك فذهب إلى هناك .

— وهل رأيته وجها لوجه .

— وحق السماء لقد رأيته ! فارس مغوار أعظم منهم طرًّا . ولقد عرفنى على الفور بارِكه الله ، وعندما تقدمت إليه ابتدرنى قائلا .

— وماذا قال ؟

— قال ، . . لا . . . فقد أومأ إلىّ أولا وبعد ذلك قال يا يانكل ، فقلت له سيدى أندريا ! قال يا يانكل ، أبلغ أبى وأخى وأبلغ القوزاق وكل الزابورجيين ، أبلغهم جميعاً ، أن أبى لم يعد بعد الآن والدى وأن أخى ليس أخى وأن رفاقى ليسوا رفاقى وأنى سأقاتلهم جميعاً ، سأقاتل كل فرد منهم .

— أنت تكذب أيها اليهودى الخبيث . أنت تكذب أيها الكلب . . . أنتم صلبتم المسيح نفسه ، أيها الرجل الملعون من الله ، سأقتلك أيها الشيطان ، اغرب عنى ، بل امكث ومت هنا .

وعند هذه الكلمات استل تاراس سيفه ، وحين رأى اليهودى الجبان ذلك ، لاذ بالفرار وجرى ما استطاعت قدماه المرتعشتان أن تحمله . جرى طويلا وهو يتلفت برأسه عبر معسكر القوزاق ثم متوغلا فى السهل العريض . ولم يطارده تاراس بتاتاً فقد أدرك حماقة تصرفه حين صب جام غضبه على أول قادم ! !

وبدأ يذكر الآن كيف أنه فى الليلة الماضية ، رأى أندريا يمشى خلال المعسكر ومعه سيدة ، وأنه حنى رأسه الأشيب لكنه لم يصدق أن شيئاً شائناً قد حدث وأن ابنه قد باع دينه وروحه للشيطان .

وأخيراً قاد فرقته إلى مكمن واختفى معها خلف الغابة التى لم يحرقها القوزاق ، وفى أثناء ذلك تقدم الزابورجيون مشاة وفرساناً من الطرق الثلاثة المؤدية إلى البوابات الثلاث . وسارت القبائل الواحدة إثر الأخرى : أومان وبوبوفيتش وكانف وستيبليكييف ونيزاماى وجورجوز وتيتاريفكا وتيموشفكا ولم ينقص من القبائل إلا قبيلة بيريسلاف الذين أفرط رجالها فى الشراب حتى غابوا عن الصواب . . واستيقظ البعض ليروا أنفسهم فى الأصفاد ولم يستيقظ البعض الآخر أبداً ، ولكنهم انتقلوا من نومتهم إلى الحياة الأخرى . . . إلى الأرض الأخرى الباردة ، وحتى زعيم القبيلة كليب نفسه قد سرقت سراويله وحرم من دثاره وشعاره وألفى نفسه فى معسكر الأعداء البولنديين .

وكانت تحركات العدو تسمع داخل المدينة ، لقد تجمعوا على أسوارها وبدوا فى صورة حية أمام القوزاق ، فالفرسان البولونيون — وكلٌّ أكثر وسامة من أخيه — وقفوا على أسوار الحصن ، والخوذات النحاسية المحلاة بريش طير البجع الأبيض تلمع كالشموس ، وآخرون منهم لبسوا قبعات خفيفة حمراء أو زرقاء فى لون السماء ، أعلاها مائل إلى جانب ، ومعاطف ذات أكمام مدلاة وراء الكتف ، موشاة بالذهب ، أو محلاة بخيوط الحرير .

وكان كثير منهم يحمل سيوفاً وبنادق مزينة ، لابد أن أصحابها قد دفعوا فيها ثمناً باهظاً ، كما كان يُرى عليهم كثير من الحلى والزينة . وكان يقف أمامهم جميعاً الكولونيل بودجاك وقفة رجل مزهو متعال ، يلبس قبعة حمراء ، وكان رجلا بديناً أطول قامة وأكثر صحة من الآخرين ، أما معطفه الثمين الفضفاض فما كان يسمه . ومن جهة أخرى كان يقف بالبوابة الجانبية كولونيل آخر ، ضئيل الجسم ، مقدد الوجه ، ذو عينين ضيقتين نفاذتين تشع إشعاعاً من تحت حواجبه الكثيفة ، وكان يسير هنا وهناك فى نشاط مشيراً بيده النحيلة اليابسة وهو يصدر الأوامر . وكان واضحاً أنه رغم قامته القصيرة كان مدرباً على فنون الحرب .

ووقف غير بعيد أومباشى نحيف ذو شارب كثيف ووجه أحمر اللون ، دليل على حبه لخمر العسل القوى والمرح الخفيف ،

وكان وراءه جمع من النبلاء تزودوا بالنقود سواء من عند أنفسهم أو من بيت المال أو من المال الذى يأتى من الرهون — رهن كل شىء داخل قصورهم العتيقة إلى اليهود .

ولم يكن ثمة أتباع متعطلون يجرون وراء شيوخ مغرورين ، يصحبونهم إلى الولائم حباً فى الظهور ، وهناك يسرقون الكؤوس الفضية من الموائد والدواليب ، وعندما ينفضّ الحفل يركبون عربة السيد النبيل .

نعم لقد كان القوم خليطاً مختلطاً ، كان بعضهم لا يملك ما يشترى به كأساً من الشراب ومع ذلك فقد ارتدى لباسه استعدادا للحرب .

ووقفت صفوف القوزاق فى سكون أمام الأسوار ، ولم يكن على ملابسهم ذرة من الذهب ، ولم تكن تلمع هنا أو هناك إلا مقابض السيوف أو الزخارف فى البنادق .

كره القوزاق أن يلبسوا لباس الحرب المزين بالحلى ، كانت دروعهم وأزياؤهم بسيطة ، وكانت قبعاتهم ذات الشارات الحمراء والمصنوعة من جلد الأغنام السوداء تغطى الميدان .

وخرج اثنان من الزابورجيين من بين الصفوف ، أحدهما كالغصن الرطيب الغض ، والآخر تقدم به الشباب . كان كلاهما ذرب اللسان حاده ، مشهوداً له بقوة الجنان ، وهما أوحزيم ناشى ، وميكيتا جولوكو ، ومن خلفهما سار ديميد بوبوفيتش وهو قوزاق

بدين أمضى طويلا فى بلاد الستش وحارب فى أدريا نوبل ، ومر بتجارب عدة فى حياته ، كاد يموت محروقاً على وتد ، ونجا بجلده إلى الستش مدهوناً بالقار فاحم الرأس محترق الشارب ، ولكن بوبوفيتش اكتنز اللحم مرة أخرى وعقد ناصيته مرة أخرى خلف أذنيه وربى شارباً غليظاً أفخم كالقار وكان هو الآخر سليط اللسان .

صاح : أرى أردية حمراء فوق رجال الجيش ، ولكنى أقسم أن تحتها رعاديد جبناء . وأجاب الكولونيل البولندى القوى من فوق : « سأريكم . سأضعكم جميعاً فى الأغلال . سلموا بنادقكم وخيولكم وأتباعكم . أرأيتم رفاقكم فى الأغلال ؟ انظروا هناك . أخرجوا الزابورجيين على الجدار ليروا بأعينهم » .

وأحضر الزابورجيون موثقين بالحبال إلى الحائط وأمامهم رئيس القبيلة « كليب » عارياً من سراويله على النحو الذى أخذ به أسيراً وهو نائم مخمور . ونكس الرجل رأسه خجلا من رؤية قومه له عارياً ومن أسره كالكلب أثناء نومه . واستحال شعره أشيبا بعد أن كان فى سواد الليل .

وصاح القوزاقيون من أسفل : تشجع أيها الصديق . سوف ننقذك .

وأردف بورودانى وهو رئيس عشيرة أخرى : تشجع يا صديق . لست ملوماً إذا كان قد قبض عليك عارياً ، فسوء

الحظ يمكن أن يلحق بأى إنسان ، ولكن اللوم بل العار أن يعرضوك عارياً ليسخروا منك وألا يعطوك غطاء لائقاً .

ونادى جولوكوبتينكو رافعاً بصره إلى السور : أنتم جيش شجاع حين يحارب قوماً نائمين ! ! »

وصاح الآخرون من فوق السور : « انتظروا ملياً ، سوف نجزّ شعوركم » .

وقال بوبوفنش : بودى أن أراهم يفعلون ذلك . ثم التفت وهو على ظهر حصانه ناظراً إلى القوزاق ثم قال : ولم لا ؟ ربما كان البولنديون ينطقون صدقاً . إذا كان ذلك الرجل البدين يقود هؤلاء فلا بد أنه سيتاح لهم فرصة عظيمة للدفاع ؟

وسأله القوزاق : ولماذا تظن أنه سيتاح لهم فرصة عظيمة للدفاع ؟

سألوه هذا السؤال وهم عالمون أنه يبيت فكاهة .

— لماذا ؟ إن الجيش كله يستطيع أن يختبئ وراءه . ولن تستطيعوا أن تمدوا أيديكم أو خناجركم إلى أحد منهم لأن كرشه سيحول دونكم .

وضحك القوزاق ملء أفواههم وظل كثير منهم يهزون رءوسهم ويقولون إن بوبوفنش الطيب الكبير يستطيع بكلماته أن . . .

وما كادوا ينتهون من هـذا الـكلام حتى صرخ فيهم الرئيس : ابتعدوا . ابتعدوا عن الأسوار فإن البولنديين لا يهضمون كلامكم اللاذع . لقد لوح قائدهم بيده .

ولم يكد القوزاق يتراجعون عن موقعهم حتى انهالت عليهم طلقات النيران من داخـل الأسوار ، وكانت الحركة الدائبة على أشدها عند أسوار الحصن ، وبرز الحـاكم وهو رجل أشيب على ظهر جواده ، وفتحت البوابات ، واندفع منها الجنود ، وكان يركب فى المقدمة الفرسان فى صـفوف متناسقة ، يليهم الجنود المدرعة ، ثم حملة السونـكى وعليهم الزرد ، ثم الجنود بخوذاتهم النحاسية ، ثم النبلاء يسيرون فرادى يرتدى كل منهم زيه وفق ذوقه الخـاص ، وكان الفرسان المتعاظمين غير مختلطين مع سائر الصفوف . من كان لا يقود منهم فصيلة من الجند كان يسير وراءه حاشيته الخاصة . وتلاهم سارت الصفوف تلو الصفوف ثم حامل النفير ومن خلفه صفوف أخرى ، ثم الـكولونيل النصف القامة على ظهر جواده . أما فى مؤخرة الجيش كله فـكان الـكولونيل النحيل راكباً .

وصاح رئيس القوزاق : لاتدعوا لهم الفرصة ليرتبوا صفوفهم ، اهجموا عليهم بجميـع القبائل ، اتركوا البوابات الأخرى ، وعلى قبيلة تيتاريفكا أن تهجم على الجناح الأيمن ، وقبيلة دياديكيف أن تهجم على الجنـاح الأيسر ، وعلى كوكوبينـكو وباليفودا أن

ينقضّـا على المؤخرة . اخترقوا صفوفهم ، وشتتوا شملهم » .

وحمل عليهم القوزاق من كل صوب ، وأدخلوا الاضطراب والذعر فى صفوفهم ، وتسللوا وسطهم ، ولم يدعوا للعدو فرصة حتى لإطلاق رصاصة ، وانطلقت على الفور الرماح والنصال ، وتلاحم الفريقان ، وأتيحت الفرصة لـكلٍّ أن يبرهن على قوة مراسه . أما دميد بوبوڤيتش فقـد طعن بالرمح ثلاثة من شاكى السلاح وأسقط من على الخيل اثنين من كبار النبلاء ، ثم قاد هذه الخيل قائلا : « أيتها الخيل الـكريمة : كم تمنيت أن يكون لى مثلـكم » ونادى أحـد القوزاق الواقفين هناك ليعنى بها نيابة منه . ثم عاد وانخرط ثانية فى المعمعة وانقض على النبيلين المتجردين من حليهما فقتل واحداً ورمى حبله حول عنق الآخر ثم شـده إلى سرجه وأخذ يجره فى عرض الميـدان بعد أن أخذ منه سيفه ذا المقبض الثمين وكيسه المتلىء بالدنانير المعلق بحزامه .

والتحم الشاب القوزاقى الجرىء كوبيتا مع أحد شـجعان المحاربين البولنـديين وطال التحامهما ، وكانا يتقاتلان بالأيدى ، وأخيراً أفلح القوزاقى فى التغلب على خصمه ، وطرحه أرضاً ثم طعنه طعنة نجلاء فى صـدره بخنجره التركى ، ومع ذلك لم ينج القوزاقى فقد مرقت رصاصة فى تلك اللحظة واخترقت أم رأسه ، وكان قاتله واحد من أولئك النبلاء العظام وأروع الفرسان ، كان رئيس بيت بحكم الإمارة من قديم الزمان ، وكان يمرق كالسهم

هنا وهناك على جواده الأشهب ، ويأتى كثيراً من أعمال البطولة والفروسية . فقد مزّق اثنين من القوزاق وأنزل واحداً من خيرتهم هو فيودور كورش من جواده إذ أطلق عليه النيران وطعنه برمحه ، كما حزّ كثيراً من الرؤوس والأيدى . وها هو ذا أخيرا يصيب كوبتا فى رأسه .

وصاح كوكو بينكو زعيم قبيلة بنزاماى وهو يحفز جواده : هنا رجل أود أن أختبر قوتى معه . وانقض عليه من الخلف فى زئير مدوى حتى ارتعدت فرائص جميع القوم حواليه . وحاول البولندى أن يلفّ بجواده ليتمكن من مواجهة عدوه ، ولكن الجواد إذ أفزعه الصوت الرهيب قفز إلى جانب ؛ وأصابت بندقية كوكو بينكو الراكب . لقد أصابته فى كتفه ، وسقط من على جواده ولكنه لم يستسلم ؛ حاول أن يردّ على عدوه ولكن ذراعه تخاذل تحت وطأة سيفه وأخذ كوكو بينكو سيفه الثقيل بكلتا يديه وطعن به فمه المصفرّ فكسر أسنانه ومزق لسانه وهشم عنقه وانغرس السيف الثقيل فى الأرض ، وبذلك التصق الفارس فى فى الأرض وتوسّد التراب وكان دم النبلاء القانى كالورد اليانع على ضفاف النهر يتدفق منه كأنه نبع ، وقد لطخ معطفه الفاقع اللون الموشى بالذهب .

وتركه كوكو بنكو وشقّ طريقة مع صحابة إلى جزء آخر من

الميدان ... والتفت بوروداتى زعيم قبيلة أومان إلى هـذه الجثة متسائلا : كيف ترك كوكو بنكو تلك الغنيمة الباردة ؟ .

وترك رجاله واتجه صوب الفريسة وهو يقول : لقد قتلت سبعة من النبلاء بيدى هـذه ولـكنى لم أرَ مثل هذه الحلى والزينات على أحد منهم .

واستسلم بوروداتى لشهوة الطمع ، فانحنى ينزع الدرع الثمين ، وبعدئذ استولى على خنجر تركى مرصع بالجواهر ، ثم نزع كيسه المملوء بالدنانير ، وأخذ من فوق صدره كيسا آخر به قطعة من الـكتان الفاخر والفضة الصافية ، وتذكار حب : هو خصلة من شـعر فتاة .

ولم يلمح الضابط ذا الأنف القانى الذى انقض عليه من الخلف ورفع سيفه ثم هوى به وبكل قواه على رأس بوروداتى المنـكب على الأرض .

وهكذا لم يؤد الشره القوزاقَ إلى الخير . لقد طارت رأس بوروداتى القوية وهوى جسـده واصطبغت الأرض بالدم القانى وطارت روحه الصارمة إلى عالم الخلود فى سرعة وقد عجبت أن تنفصل قبل الأوان عن هذا الجسم الذى كالبنيان !

وأمسك حامل النفير برأس زعيم القبيلة ليربطها إلى سرجه وفى هذه اللحظة ظهر جبار منتقم . كان كالصقر المحلق فى الآفاق ، والذى ينقض بجناحيه القويين على طير السمان فى عرض الطريق .

وكان هذا الجبار هو أوستاب ابن بولبا فانقض على حامل النفير ورمى بحبله حول عنقه ، فلما ضاقت حلقاته ازداد وجهه الأحمر احمراراً ، وحاول أن يمسك مسدسه لكن يده المتصلبة العضلات لم تستطع أن تصيب الهدف فطاشت الرصاصة . وفكّ أوستاب الخيوط الحريرية من سرج حامل النفير ليوثق به أسراه ، وبعد أن ربط يد حامل النفير وقدميه بوثاقه جره إلى الميدان ، وأخذ ينادى جميع القوزاق من قبيلة أومان ليحضروا فيودعوا زعيمهم الوداع الأخير ويقوموا بما يلزم من المراسيم .

وما أن علم أفراد قبيلة أومان أن زعيمهم قد قتل حتى غادروا ميدان القتال وأسرعوا بسحب جثته ، وبدأوا على الفور فى التشاور عمن ينتخبونه زعيما لهم .

وأخيراً قالوا : « ولماذا نتجادل ؟ إنا لن نجد زعيما خيراً من أوستاب الشاب ، حقيقة إنه أصغرنا جميعاً ، ولكن له حكمة الشيوخ » .

وخلع أوستاب قلنسوته شاكراً لإخوانه القوزاق هذا الشرف . لم يحاول أن يعتذر ، كما تقضى بذلك التقاليد ، بسبب شبابه أو حكمته ، إذ أدرك أن ذلك غير مناسب فى أوقات الحرب فقادهم على الفور إلى خوض المعركة وأشهدهم جميعاً على أنهم لم يختاروه عبثاً .

وأحس البولنديون بوطأة القتال عليهم وتقهقروا مهرولين من ساحة القتال لكى يعيدوا تنظيم صفوفهم فى الطرف الآخر من الميدان . وأشار الكولونيل النحيل إلى أربع من جماعات الجند الاحتياطى ، مرابطين بعيداً عند البوابات ، فانطلقت إلى حشود القوزاق . . . دون جدوى ، فإنها لم تصب سوى ثيران القوزاق التى كانت ترمق المعركة بعين وحشية ، وارتعدت الثيران ووجفت وهرولت إلى معسكر القوزاق تهشم العربات ، وتطأ الأقوام بأقدامها .

ولكن تاراس الذى كان كامناً ، اندفع فى تلك اللحظة ، وألقى بنفسه وفرقته فى عرض الطريق ، وأفزع القطيع الهائج وغيّر وجهته منقضاً على فصائل الجند البولنديين يطرح فرسانهم أرضاً ويسحقهم ويفرق جموعهم .

وصاح الزابورجيون : شكراً لك أيتها الثيران ، لقد ساعدتمونا فى المسير وها أنتم تساعدوننا فى الحرب . . . وهجموا على الأعداء بروح قوية متضاعفة ، فكثر عدد القتلى بين الأعداء ، وأظهر كثيرون من القوزاق ضروب البسالة ، «ميتليتسيا ، شيلو» وكلاهما من قبيلة بيزارينكوس وقوقوتيزنكو ، وكثيرون غيرهم .

ولما رأى البولنديون الريح مدبرة ، رفعوا أحد الأعلام ، ونادوا لفتح البوابات ، وفتحت البوابات المثبتة بالحديد فى صرير مدوّ ، واستقبلت الركب وقد حل به الإعياء وعفّره التراب !

وتجمعوا داخل الأبواب كما تفعل الأغنام داخل الحظيرة ، ولم يطاردهم سوى قلة من الزابورجيين .

بيد أن أوستاب استوقف قبيلته أومان منادياً فيهم : « ابتعدوا عن الأسوار ، ابتعدوا عن الأسوار . أيها السادة والإخوان . ليس من الخير الاقتراب » .

ولقد نطق صدقاً ، فقد فتح العدو نيرانه وصبّ عليهم كل ما وصلت إليه يده ، ونزلت الخسائر بعدد غير قليل من المهاجمين .

وأقبل الرئيس عندئذ وامتدح أوستاب قائلا : هنا زعيم جديد يقود قبيلته فى حكمة الشيوخ .

والتفت بولبا الكبير ليرى من ذا يكون الزعيم الجديد ، فإذا به يرى أوستاب جالساً على جواده على رأس قبيلة أومان ، وقلنسوته مائلة إلى جنب ، وعصا الزعامة فى يده . وأثلج صدر الرجل وشكر لقوزاق الأومان الشرف الذى أسبغوه على ولده .

وكاد القوزاق ينسحبون إلى معسكرهم عند ما ظهر البولنديون مرة أخرى فوق أسوار المدينة . وكانت أرديتهم هذه المرة ممزّقة ، وكثير منها ملطخا بالدماء وكانت خوذاتهم النحاسية الأنيقة قد عفّرها التراب .

ونادى الزابورجيون من أسفل : حسناً ! هل أوثقتمونا ؟؟ »

وصاح الكولونيل النّصفُ القامة من عِلّ : « سأريكم » وردد هذا التهديد كالمرة السابقة ملوحاً بالحبال .

واستمر المحاربون المتعبون المفـّرون يتبادلون التهديد والوعيد ويتبادل المتحمسون من الفريقين أعنف عبارات السخرية . وأخيراً انسحب الجميع . فريق آوى للراحة وقد أعياه القتال ، وفريق آخر نثر الرماد على جراحه ، واتخذ من المناديل وأفخر الثياب التى نزعوها من قتلى الأعداء أضمدة لجراحهم . ولم يستول الإعياء على فريق ثالث فجمعوا قتلاهم وحفروا القبور بالأسياف والسونكى وكانوا ينقلون التراب فى قلنسواتهم ومعاطفهم ، وكان صرعى القوزاق يوسـّدون الأرض ويغطون بالتراب الندىّ حتى لا تفقأ عيونهم الغربان الجائعـة والنسور الجارحة . أما جثث البولنديين فـكان توثق كل أنثى عشر منها إلى ذيول الخيل الهائجة وكانوا يطلقونها إلى السهول يطاردونها ويلهبونها بالسياط .

وركضت الخيل الهائجة فوق التلول والسهول عبر الحفر والقنوات ، يجرون أشلاء البولنديين المضرجة بالدماء المعفرة بالتربة الغبراء .

وجلست القبائل فى حفلات مستديرة ، يتناولون وجبـة العشاء ، وظلوا يتحدثون حتى ساعة متأخرة من الليل عن معاركهم وأعمالهم المجيدة التى سوف يتغنى بها الأعقاب طول الزمان ومدى الأحقاب .

لقـد جلسوا طويلا ، وجلس تاراس مدة أطول ، يفكر فى غياب أندريا بين صفوف المحاربين الأعداء ، هل أجبره العار

ألا يتصدى لأبناء جلدته ؟ ، أم هل كذب اليهودى وافترى ؟ ، وأن أندريا إنما أخذ أسيراً .

ولكنه تذكر عندئذ أن قلب أندريا تؤثر عليه المرأة ، فبرح به العذاب ومزّق قلبه وأقسم لينتقمن لنفسه من البولندية التى فتنت ابنه أيما فتنة ! وكان يَوَدُّ أن يفى بقسمه ، إنه لا يودّ النظر إلى مفاتنها بل سيجرّها من ضفائر شعرها المسبلة عبر الميدان ، أمام أنظار جميع القوزاق ، أما صدرها الفاتن وكتفاها الناصعتا البياض كطبقات الثلج التى تغطى قمم الجبال فسيضرب بها وجه الأرض ويلطخهما بالدماء والتراب .

ولكن بولبا لم يدر ماذا يخبئه القدر فى غد ؟ . . وما لبث أن ملك عينيه الرقاد فاستلقى نائماً . واستمر القوزاق يتبادلون الأحاديث ، وظل الحرس الوقور بجوار النيران إيقاظاً طوال الليل ، ويبثون عيونهم الحذرة فى جميع الجهات .

الفصل الثامن

لم تكن الشمس قد توسطت السماء حينما دعى كافة الزابورجيين للتشاور ، فقد بلغهم نبأ من الستش أن التتر قد نهبوها أثناء غياب القوزاق ، وأنهم استولوا على مدخراتهم ، وقتلوا وسبوا كل من تخلف من القوزاق . وأنهم رحلوا بما استولوا عليه من قطعان الماشية وفصائل الخيل متجهين إلى بيريكوب رأساً ، ولم ينج بجلده من أيدى التتر سوى قوزاق واحد هو مكسيم جولو دوخا ، إذ طعن كبير منهم (الميرزا) ، وفضّ الزكيبة المعلقة بوشاحه ، ثم امتطى أحد جياد التتر وارتدى ملابسهم وبعد أن أمضى يوماً ونصف يوم وليلتين كاملتين نجا من مطارديه .

لقد ركب جواده حتى نفق ، وامتطى آخر فمات هو الآخر ، و بلغ على صهوة جواد ثالث معسكر الزابورجيين ، بعد أن علم فى الطريق أنهم يعسكرون عند مدينة ديبنو . واستطاع بجهد جهيد أن ينبئهم بنزول الكارثة . ولكن كيف حدث هذا ؟ هل ثمل الزابورجيون الذى ظلوا بالمدينة وأفرطوا فى الشراب على الطريقة الزابورجية حتى سقطوا مخمورين فى قبضة الإسار ؟ أم هل اكتشف التتر البقعة التى يخفى فيها الجيش ذخائره ؟ ذلك ما لم

يستطع أن يقوله . فقد خارت قواه . وانتفخ جسده واحترق وجهه ولفحته الرياح وهوى إلى الأرض وسرعان ما استولى عليه النعاس .

وكانت تقاليد القوزاق فى هـذه الحالة أن يطاردوا الناهبين على الفور وأن يحاولوا اللحاق بهم فى الطريق ، فإن الأسرى قد يرسلوا توا إلى سوق الرقيق فى آسيا الصغرى أو أزمير أو جزيرة كريت ، أو إلى أى مكان آخر لا يعلمه إلا الله ولا توجد فيه رأس قوزاق .

من أجل هذا اجتمع الزابورجيون ، وكانوا مرتدين قبعاتهم . إنهم لم يحضروا الاجتماع لتلقى الأوامر من الزعماء ولـكن للتشاور كأنداد ونظراء فيما يفعلون .

وصاح فريق من الجميع : ليبدأ الـكبار بإسداء المشورة .

وأردف آخرون : أشرْ علينا ياسيادة الرئيس ؟

وخلع الرئيس قلنسـوته وتحدث فيهم كواحد منهم لا كرئيسهم فأثنى على القوزاق للشرف الذى أضفوه عليه ثم قال :

إن بيننا كثيرين أكبر حكمة وأعظم سـداداً . أَما وقد شرفتمونى بإسداء النصيحة ، فها هى مشورتى : لا تضيعوا وقتاً أيها الرفاق . اذهبوا فى أثر التتر ، فإنـكم تعلمون من هم التتر ؟

إنهم لن ينتظروا مقدمنا ولـكنهم سيوزعون الأسلاب والمغانم فى لمحة عين ولا يخلفون وراءهم أثراً . لهذا فإن نصيحتى أن نرحل إليهم . إن أمامنا مهمة كبيرة .

لقد انتقمنا لديننا أعظم انتقام ، إن المدينة تموت جوعاً ولا جدوى منها ، ولهذا أشير عليكم بالرحيل .

وصاحت القبائل فى صوت قوى مكين : لنذهب !

ولم يرق هذا الحديث فى عين تاراس بولبا وقطب جبينه الأشيب فوق عينه ، كأنها غابة سوداء نامية على قمة جبل ، وقد أصابها رذاذ من صقيع الشمال وقال : كلا إن هذه ليست نصيحة صالحة . إنه لا ينبغى لك أن تقول ذلك . ويبدو أنك نسيت أن رفقاء لنا مازالوا هنا تحت أسر البولنديين . يبدو أنك تريد منا أن نحنث بأقدس قوانين الزمالة وندع إخواننا القوزاق يفرون جلودهم أو يقطعونهم إرَبا أو يستعرضونهم على عربات الجرّ فى المدائن والقرى كما حدث لأعظم فرسان الروس فى أوكرانيا . ألم ينسوا أيضاً كل مقدساتنا ؟ إنى أسألك : أى صنف من الرجال تظنه نحن ؟ أى نوع من القوزاق ذلك الذى يترك رفيقه فى النوازل ويدعه يهلك فى بلاد أجنبية كأنه الـكلب ؟ لئن بلغت الأمور هـذا المبلغ وأصبح القوزاق لا يقدّر شرفه ويقبل المهانة والبصق على شاربه الأشيب ، فأرجو ألا يعنفنى أحد إذا رأيت أن أبقى هاهنا وحدى .

وهاج جميع الزابورجيين وماجوا .

وأجاب الرئيس : « وهل نسيت أيها الكولونيل الشجاع أن لنا رفاقاً وقعوا أسرى فى أيدى التتر أيضاً ، وأننا إن لم ننقذهم الآن فسوف يباعون ويصبحون عبيداً للكفار أبد الممر . ولعمرى إن هذه لنكبة شر أبشع من القتل . هل نسيت أنهم استولوا الآن على كنوزنا وذخائرنا التى كسبناها بالدم المسيحى ؟

وفكر القوزاق فى كل ذلك ، لا يدرون ماعسى أن يقولوا . . لا أحد منهم يخطب العار لنفسه . . .

وخطا كازيان بوقديج إلى الأمام وكان أكبر الجنود الزابورجيين سناً وموضع تجلة واحترام القوزاق جميعاً ، انتخبوه رئيساً عليهم دفعتين ، وأبلى فى الحروب بلاء حسناً . ولكن سنه تقدمت وكبرت ، ولم يعد يسهم فى الحروب ، ولا عاد يسدى النصح لأحد ، وآثر أن يستلقى على جنبه وسط القوزاق ويستمع إلى قصص الحروب والمغامرات . ولم يشترك فى حديثهم أبداً ولكنه كان يصغى إلى كل كلمة ثم ينفض الرماد من غليونه القصير الذى كان لا يترك فمه أبداً . كان يرقد هكذا طويلا وعيناه شبه مغلقتين ، ولذا لم يكن يدرى القوزاق أنائم هو أم مازال يستمع ! ! وقد تخلف فى بلدته أثناء المعارك السابقة ولكنه لم يطق هذه المرة صبراً فلوح بيده على الطريقة القوزاقية قائلا : ليكن ما يكون ! سأرافقكم ، ربما أكون ذا نفع للقوزاقية .

وعندما تقدم أمام الجماعة ، ساد السكون بين القوزاق ، لقد مضى عهد طويل منذ سمعوه آخر مرة ، وتاقت نفس كل منهم أن يسمع ما سيقوله بوفديج .

وبدأ يقول : لقد حان الوقت أيها السادة والإخوان لأن أقول لكم كلمة . اسمعوا يا أولادى رجالا وكباراً ، حقاً كانت كلمات الرئيس حكيمة ، وبما أنه قائد الجيش القوزاق المسئول عن حمايته والحفيظ على خزائنه وذخائره فلم يكن يمكن أن يقول خيراً مما قال .

هذه هى أول كلمة أقولها والآن استمعوا إلى الكلمة التالية :

لقد كانت كلمة الكولونيل تاراس بولبا أيضاً عظيمة وتستند إلى الحق ، متعه الله بالعمر المديد ، هو وأمثاله من القواد المديدين لأوكرانيا . إن واجب القوزاقى الأول وشرفه المفضل هو أن يكون مخلصاً صادقاً لقانون الزمالة . وطول حياتى الطويلة لم أسمع أن قوزاقياً هجر أو خان رفيقاً . إن هؤلاء القوزاق الموجودين هنا والمأسورين فى الستش كلهم رفاقنا ، وليس بهم إن كانوا هنا أو هناك قلة أو كثرة فكلهم رفاقنا وكلهم أعزاء علينا . ولهذا فإن هذا هو رأيى : الذين يشعرون بأن الذين أسرهم التتر أعز عليهم لندعهم يذهبون لمطاردة التتر والذين يشعرون بأن الذين أسرهم البولنديون أعز عليهم لندعهم يتخلفون للدفاع عن القضية

العادلة التى يؤثرون ألا يتركوها . وليقم الرئيس بأداء واجبه ويقود النصف يطارد به التتر ، وليختر النصف الآخر نائباً للرئيس لقيادته هاهنا .

وإذا قبلتم أن تسمعوا لرأس علاه الشيب فليس أصلح للقيام بأعمال نائب الرئيس من تاراس بولبا ، فليس أحد يعدله جرأة وشجاعة .

وفرغ بوڤديج من كلامه ، وانشرحت صدور القوزاق لهذه النصيحة الحكيمة التى صدرت عن لسان القوزاق العجوز ، وقذفوا قبعاتهم ونادوا : « شكراً لك أيها الرئيس . لقد صمت طويلا ولكنك تكلمت أخيراً . لم يكن وعدك عبثاً أن تكون ذا نفع للقوزاقية . وكذلك برهنت الأحداث » .

وسألهم الرئيس : حسناً وهل توافقون على ذلك ؟

فأجابوا بأعلى صوت : نعم نوافق .

— إذن فقد انتهى الاجتماع .

وصاح القوزاق من أعماق حناجرهم : نعم قد انتهى الاجتماع .

وهنا قال رئيسهم : « إذن اصغوا إلى أوامرى يا أبنائى » . وتقدم إلى الأمام واضعاً قلنسوته على رأسه فى حين وقف الزابورجيون عن بكرة أبيهم عراة الرأس وعيونهم تنظر إلى الأرض كعادتهم عندما يتأهب كبير منهم للكلام .

« والآن قسموا أنفسكم أيها الإخوة السادة . أيكم يريد أن يرحل ، يخطو إلى اليمين ، وأيكم يريد أن يبقى ، يخطو إلى اليسار ، وأى الفريقين من الجماعة كان أكبر ينضم إليه زعيمها والفريق الأقل عدداً ينضم إلى جماعات أخرى .

وبدأوا يتحركون بمنة ويسرة . اتجهت الكثرة الغالبة من بعض الجماعات نحو الرئيس واتجهت الأقلية إلى القبائل الأخرى . ونجم عن ذلك أن تعادل الفريقان أما الذين آثروا البقاء فكانوا تقريباً كل قبائل نزامای وأومان وكنيف ، وأكثر من نصف قبائل بوبوڤيتش وستبليكلى وتيموشفكا . أما الباقون فقد آثروا الذهاب فى إثر التتر .

وكان عدد موفور من الأبطال الأشداء فى كلا الفريقين القوزاقيين ، وكان من بين الذين تطوعوا لتعقب التتر رجل قوزاقى كريم اسمه شيراڤانى ، بوكو تيبولوى وليميش وخوما بووكوبوفيتش ، وكذلك انحاز إلى جانبهم ديميد بوبوڤيتش فقد كان قوزاقياً جسوراً لا يستقر له قرار ، شهد المعارك مع البولنديين والآن يحرص أن يقف فى وجه التتر . وكذلك كان زعماء القبائل نوستيجان وبوكريشكا ونيڤيليشكى وعدد موفور من أبطال القوزاق المشهورين الذين تاقت نفوسهم لاختبار أسيافهم وأعصابهم فى معركة مع التتر .

وكان من بين الذين آثروا التخلف كثيرون من خيرة

القوزاق ، مثـل زعماء القبائل ديمتروڤيتش وكوكو بينكو ، فرتيجڤست ، بالابان ، أوستاب بولبا وكثيرون غيرهم من القوزاق الأشداء المشهورين : فوفوتيزنكو ، تشيريفيشنكو وستيبان جوسكا وأوخريم جوسكا وميكولا جوستى وزادورونى وميتيليتسيا وإيفان زا كروتيجوبا وموسى شيلو ودجتيارنكو وسيدرنكو وبيزارنكو وبيزارنكو الثانى وبيزارنكو آخر وعدد موفور من خيرة القوزاق .

كل واحد منهم رحل كثيراً ، وحوّم على شواطئ الأناضول كثيراً ، وعبر جزيرة القرم وغياضها الماحلة وسهولها ، وعلى شواطئ الأنهر صغيرها وكبيرها التى تصب فى نهر الدنيبر ، على طول مداخلها وجزائرها . وقد زاروا بلاد مولداڤيا وألأشيا والأراضى التركية . وقد مخرت بهم العباب فوق رقعة البحر الأسود جمعاء ، سفائنهم ذات الدفتين ، وأغاروا بأسطول مكون من خمسين مركباً من أكبر وأكثر السفائن حمولة وأغرقوا غير قليل من سفن الحرب التركيـة . كم من المرات مزقوا الحرير والقطيفة الغالية ليجعلوا منها أغطية لأرجلهم ، وكم من المرات ملئوا أكياسهم المدلاة من أحزمتهم بالدنانير الوهّاجة ، وكان من المستحيل أن نعرف مقـدار ما أنفقوا على الشراب واللهو ، إنه يكفى أن يضمن لغيرهم من الناس حياة رغدة غنية . لقد بعثروها

جميعاً على الطريقة القوازقية تماماً مدخلين البهجة على قلوب الجميع مستأجرين أشهر الموسيقيين حتى تمرح الدنيا وتفرح .

كان القليل منهم من أولئك الذين لا يحتفظون بالكئوس والآنية والحلى وإنما كانوا يخبئونها فى الغابات بجزائر الدنيير حتى لا يتمكن التتر من معرفة مكانها إذا ما انقضوا فجأة على قبائل الستش إذ يكون من العسير عليهم العثور عليها . بل إن أصحابها أنفسهم يكونون قد بدأوا ينسون أين أخفوها .

من هذا الطراز كان القوزاق الذين آثروا البقاء والانتقام من البولنديين لأجل رفاقهم المؤمنين بالدين والعقيدة المسيحية .

وكذلك فعل القوزاق العجوز بوڤديج إذا قرر البقاء معهم قائلا : « إن سنى لن تسمح لى بمطاردة التتر . وها هنا مكان يصلح لموتى ميتة قوزاقية لائقة — لقد دعوت الله كثيراً أن أموت فى حومة الوغى إذا أزفت نهايتى من أجل الرسالة المسيحية المقدسة . ولن يجد رجل قوزاق عجوز ميتة أعظم شرفا من هذه الميتة الكريمة .

وانقسم القوم واصطفوا قبائل فى صفين ، وسار الرئيس متوسطاً إياهم ثم قال : حسناً أيها السادة الإخوان ، هل أنتم راضون عن بعضكم البعض ؟

وأجاب القوزاق : جميعنا راضون أيها الرئيس .

— حسناً . قبلوا بعضكم بعضاً ، وودعوا بعضكم بعضاً ،

فلا يعلم إلا الله إن كنتم ستتلاقون ثانية . أطيعوا زعماء قبائلكم ولكن اعملوا دائماً ما يليق بكم وما يمليه عليكم شرف القوزاق .

وأخذ القوزاق على كثرتهم يتعانقون ، وبدأ الزعماء أولا بعد أن مسحوا شواربهم برفق يقبلون وجنات بعضهم البعض ، ثم وضعوا أيديهم فى أيدى البعض وأطبقوا عليها طويلا ، وود كلٌّ لو يسأل الآخر : هل سنتلاقى مرة أخرى أيها الأخ المحترم ؟

ولكنهم لاذوا بالصمت وسبحت الرؤوس التى ملأها الشيب فى تفكير عميق ، على حين كان القوزاق من حواليهم يودعون بعضهم بعضاً وهم على بينة من أن كثيراً من المشقة والجهد ينتظر كلا الطرفين ، على كلّ ، لقد قرروا ألا يتعجلوا الفراق ، وأن ينتظروا حتى تأتى الظلمة كى لا يفطن البولنديون إلى نقص عدد الجيش القوزاق . ثم ذهبوا إلى قبائلهم لتناول الغذاء بعد ذلك استلقى الفريق الذى قرر الرحيل على الأرض وراح فى سبات طويل عميق ، كأنهم يتوقعون أنها آخر مرة ينعمون فيها بالنوم فى طمأنينة ناعمة . وظلوا رقوداً حتى مالت الشمس للمغيب وراء الأفق ، وعندما أرخى الليل سدوله أخذوا يطلون عرباتهم بالقار . ولما تأهبوا ، بعثوا بعرباتهم إلى المقدمة ، وقبل أن يتبعوها لوحوا فى هوادة بقلنسواتهم لرفاقهم .

وركض الفرسان خلف المشاة دون جلبة أو ضوضاء وسرعان ما اختفوا فى الظلام الدامس ، لا نأمة ولا صوت يسمع

إلا أصوات حوافر الخيل وصليل العجلات تمشى فى غير استواء ، إذ لم تكن قد طليت فى الظلام طلاء كافياً .

وظل الرفاق الذين خلفوهم وراءهم يلوحون لهم وقتاً طويلا ، رغم أنهم لم يعودوا يرون منهم أحداً . وعندما عادوا إلى أماكنهم وأخذت النجوم تسطع بالضياء رأوا أن نصف عدد العربات قد ذهب ، وأن رفاقاً عديدين لم يعودوا بينهم ، وعند ذاك حزنت قلوبهم ، وبدءوا يفكرون فى حزن ، وانحنت رءوسهم التى كانت لا تعرف إلا المرح .

ولاحظ تاراس أن صفوف القوزاق قد سادها الأسى والكمد مما أحنى رءوسهم الأمر الذى لا يليق بصناديد الرفاق ، ولكنه ظل هادئاً حرصاً منه على أن يتعودوا هذا الحزن عند فراق الرفاق ، ولكنه استعد ليلهب شعورهم فوراً بصيحة القتال القوزاقية حتى تعاودهم روح الشجاعة التى تحفزهم إلى القوة أكثر من ذى قبل .

وهذه هى طبقة السلافيين القوية ، الذين يتصفون بهذه الصفة دون غيرهم ، فهى لهم بالنسبة للآخرين كالبحر العميق والأنهار الضحلة . عندما تعصف الريح ترى البحر يرعد ويبرق ويثير الموج كالجبال بينما لا تستطيع ذلك الأنهر الضعيفة ، فإذا كانت ريح رخاء وساد الهدوء تراه ينشر صفحته المزججة

اللانهائية بصفاء أشد مما يحدث فى النهر فى متعة خالدة للأبصار .

وأمر تاراس حاشيته أن يخلوا إحدى العربات المنعزلة مما عليها ، وكانت تكبر عربات الأمتعة الأخرى ليرى القوزاق ، وكانت عجلاتها الضخمة تكسوها أطواق مزدوجة من الحديد ، وكانت محملة بأحمال ثقال ، مغطاة بقماش الخيل وجلود الثيران الشديدة ومربوطة بالحبال المدهونة بالقار ، مملوءة بأجود الأنبذة المعتقة ، معبأة بالقنانى والبراميل التى عاشت طويلا فى أقبية بولبا . لقد أحضرها معه ، فى انتظار حدث جليل ، حينما تحين فرصة عظيمة ، عند ما تنتظرهم معركة جديرة أن يتناقلها الخلف عن السلف ، حتى يمكن لكل قوزاق — من أولهم إلى آخرهم — أن ينهلوا من هذه الخمر المختزنة فتلتهب منهم المشاعر لأجل المناسبة العظيمة .

وعندما سمع الخدم بأمر الكولونيل تدافعوا إلى العربة ، وقطعوا الحبال الغليظة بأسيافهم ومزّقوا جلود الثيران السميكة وقماش الخيل ، وأخذوا منها القنينات والبراميل .

وأمرهم بولبا : « خذوها جميعاً . خذوا كلّ ما فيها ، خذوا كل ما تجدون . . . مغارف أو دلاء تسقى بها الخيل ، قفازات أو قلنسوات .

وتسلل خدم بولبا إليها ، يصبون النبيذ من القنينات والبراميل ولكن بولبا أمرهم ألا يشربوا قبل أن يعطى الإشارة

ليشرب الجميع سويا . وكان واضحاً أنه يريد أن يتفوه بشيء . كان بولبا جد عليم بأنه مهما كانت قوة تأثير النبيذ المعتق فى إيقاظ الشعور فإنه إذا صحبته كلمة منتقاة تضاعفت قوة تأثير الخمر والروح معاً . وتكلم بولبا فقال :

أيها السادة الاخوان . إنى أحتفل بكم ، لا لأنكم نصبتمونى عليكم زعيما مع عظيم هذا الشرف ، ولا لأننا افترقنا عن رفاقنا ، لا . . . . . إن هاتين المناسبتين قد تكونان صالحتين للاحتفال بهما . لكن هذه اللحظة ليست مناسبة لذلك . . . . ذلك لأن المعركة التى أمامنا تتطلب لخوضها عرق الجبين وصلابة الشرايين . فلنشرب أيها الرفاق معاً ، وقبل كل شيء ، فى نخب العقيدة الأرثودكسية المقدسة ، وندعو الله أن يأتى اليوم الذى تسود فيه على العالم طراً ، وألاّ يكون فى كل بقاع الأرض سوى عقيدة واحدة مقدسة ، وأن يؤمن الكفار فردا فرداً بالديانة المسيحية .

لنشرب إذن نخب بلاد الستش أن تبقى لدحض الكفار ، وأن تبعث كل عام بصناديدها المحاربين ، كلٌّ أروع جمالا وأشد ساعداً من صاحبه .

لنشرب إذن نخب مجدنا وعزنا ، حتى يقول أحفادنا وأبناء أحفادنا إنه كان هناك قوم لم يخونوا الأمانة ، ولم يهجروا الصحبة فى ساعات الشدة .

أيها السادة الإخوان . نخب الإيمان بالله .

وردد النداء أصوات الواقفين فى الصفوف القريبة ، ثم انضمت إليهم الصفوف الخلفية . وشرب الجميع نخب القضية المسيحية .

ورفع تاراس يده فوق رأسه وقال : نخب الستش .

ورددت الصفوف الأمامية النداء فى صوت عميق ، ردده العجائز بصوت رقيق وهم يبرمون شواربهم، ونهض شباب القوزاق كالنسور الجارحة وهم يرددون « نخب الستش » ، وسمع السهل البعيد كيف يحيى القوزاق بلادهم الستش .

« ورشفة أخيرة لمجدنا ولكل المسيحيين على البسيطة » .

وتردد الصدى طويلا فى صفوف القبيلة : « ولكل المسحيين على البسيطة » وفرغت كئوسهم وما زال القوزاق وقوفاً بأذرعتهم المرفوعة ، ومع أن عيونهم كانت تشع مرحاً وبهجة من النبيذ ، إلا أنهم كانوا فى تفكير عميق .

لم يعودوا يفكرون فى المغانم والأسلاب ، ولا فى أيهم سيكون محظوظاً فى اقتناء الدراهم والدروع الثمينة والملابس المطرّزه والجياد الجركسية . ونظروا وكأنهم النسور الجاثمة فوق قمة الجبل ذى الأخاديد والصخور ، والتى يمكن أن يرى من فوق البحر المحيط مرقطا بالأطيار الصغيرة والمراكب الحديثة والسفائن وكل أنواع الناقلات ، لا يحده إلا الشواطئ التى قلما تشهدها ،

والمدائن التى تبدو فى حجم لا يزيد عن حجم الفراشة والغابات الباسقة كأنها فى ارتفاع الحشائش .

نظروا وكأنهم النسور إلى السهل وإلى المستقبل الذى بدا أمام أعينهم قاتماً غامضاً . وسيأتى اليوم الذى تتناثر فيه أشلاؤهم وتسيل دماؤهم ، وعرباتهم المحطمة وأسيافهم ورماحهم المثلمة سطح الوادى جميعاً سواء فى الطريق المعبّـدة أم الأرض القفرة . ، وسوف تطيح رؤوسهم كل مطاح ومعها جدائل شعور رأسهم ملطخة بالدماء وشواربهم المدلاّة ، وسوف تنقض النسور وتنقر عيونهم ثم تنتزعها من مكانها عنوة . . . . لـكن هذا المسكر المنتشر بأشلاء الموتى سوف يذيع صيته فى الخافقين ، لن يضيع عمل من أعمال البسالة النادرة ، ولن يفنى مجد القوزاق كما يفنى رش البارود من ماسورة البندقية ، وسيأتى اليوم الذى ترى فيه حامل القيثارة ولحيته الشيباء متدلية على صدره كأنه الفتى القوى المشتعلة روحه كأنها روح الأنبياء وهو يتغنى وينشد بهـذا المجد وهذه البطولة فى منطق قوى عميق .

وسيطغى مجدهم وصيتهم على العالم ، وسيتكلم الأحفاد عنهم فإن كلمة القوة سوف تحمل صداها بعيداً ، كما يكون صدى الناقوس النحاسى الذى يخلط فيه الحداد كثيراً من اللجين الصافى الثمين لـكى يتردد رنينه الجميل من على البعـد خلال القرى والمدائن والقصـور والأكواخ ، داعياً الناس جميعاً على السواء إلى أداء الصلاة .

الفصل التاسع

ولم يعلم أحد فى المدينة أن نصف الزابورجيين قد رحلوا لمطاردة التتر ، بيد أن الحراس الواقفين على البرج فوق مقر الحكومة بالمدينة لاحظوا فعلا أن جزءاً من العربات قد أوغلت داخل الغابة فظنوا أن القوزاق يستعدون لعمل كمين واتجه المهندس الفرنسى إلى مثل هذا الرأى .

وفى أثناء ذلك تأيدت آراء الرئيس ، فالمدينة كانت تواجه بشح المواد الغذائية ، وأخطأ الجنود تقدير حاجياتهم كالمألوف فى العصور الغابرة وحاولوا فك الحصار ، ولكن شياطينهم المردة الذين اشتركوا فى الملحمة قتل نصفهم تواً على أيدى القوزاق وأجبر النصف على التقهقر إلى المدينة صفر اليدين .

أما اليهود فقد انتهزوا فرصة محاولة فك الحصار ، وتنسموا أخبار كل شىء . كيف وإلى أين ذهب الزابورجيون ؟ ومع كم من زعمائهم ؟ وأى قبيلة بالذات ؟ وما عددهم ؟ وكم عدد الذين تخلفوا ؟ وما هى خططهم ؟ وفى اختصار كان كل شىء معلوماً فى المدينة فى دقائق معدودات . وتشجع القواد وأعدوا العدة للنزال ، وأدرك تاراس ما تعنيه الجلبة والأصوات داخل المدينة فبادر بعمل سريع وأعطى الأوامر والتعليمات فنظمت القبائل فى تشكيلات وأحيطوا

بالعربات والمتاريس وقد كانت هـذه خطة حربية طالما أفلح بها الزابورجيون فى جعل مواقفهم حصينة لا ينفذ إليها العدو . وأمر قبيلتين بأن تكمنا وجلب أوتاداً مسنونة وبنادق مكسورة ورماحاً مطوية إلى الجزء من الميدان الذى أراد أن يورط فيه فرسان العدو إن أمكنه ذلك .

وعندما تم كل شىء على الوجه المرضى ، قام خطيباً بين القوزاق لا ليشجعهم أو يحمسهم فقد كان يعلم جيداً أنهم ملتهبون حماسة وإنما لينفث عن صدره :

« أود أن أقول لـكم أيها السادة ما هى زمالتنا ؟ لقد سمعتم من آبائكم وأجدادكم كيف كانت بلادنا موضع الهيبة والاحترام البالغين من الجميع ، عرّفت اليونان كيف تقدرها وأخذت الجزية من الاستانة ، وازدهرت مدائننا وكان لنا معابدنا وأمراؤنا : أمراء من دم روسى لا زنادقة من الـكاثوليك . ولقد سلبونا كل هذا . هلك وفنى كل شىء وبقينا نحن وحدنا يتامى مساكين وأصبحت بلادنا المحرومة الـكليمة كالأرملة التى ثـكلت زوجها العزيز .

فى مثل تلك الظروف أيها الإخوان اجتمعنا على الإخاء ، وهـذا هو الأساس الذى قامت عليه زمالتنا ، فالوالد يحب طفله والأم وليدها والابن يحب أمه وأباه . ولـكن هذا شىء آخر ، إن الحيوان المتوحش يحب صغيره أيضاً أما الإنسان فهو وحده

الذى يعرف قرابة الروح لا قرابة الدم فقط . ولقد قامت الأخوة فى بلدان أخرى أيضاً ولكن لا مثيل للأخوة التى نهضت على تربتنا الروسية .

لقد أمضى عدد كبير منكم سنين طويلة فى بلاد الغربة ، ورأيتم هناك رجالا ، رجالا خلقهم الله مثلكم . تحدثتم إليهم كما تتحدثون مع مواطنيكم ، ولكن حينما يصدر الكلام من القلب ترون أنهم مثلكم قوم عقلاء ولكن ليسو مثلكم أبداً . إنهم كانوا مثلكم ولكنهم لم يكونوا رجالا مثلكم . كلاّ أيها الإخوان ! إن أحبوا فلن يحبوا كما تحب روح الروسى ، إن الروسى يحب لا بالعقل فقط بل بكل ما أوتى من عند الله .

وهنا لوّح تاراس بيده وهز رأسه الأشيب وبرم شاربه واستمر قائلا : « كلا . لن يحب أحد مثل ما تحبون ! وإنى أعلم أن طرقاً خبيثة قد تأصلت فى أرضنا . . هناك الذين لا يفكرون إلا فى قمحهم وتبنهم وقطعان خيلهم ولا يعنيهم شىء سوى الاحتفاظ بقنينات الخمر المغلقة فى أقبيتهم .

إنهم يقلدون عبدة الأوثان — الشيطان يعلم ما يقلدون . ويكرهون لغة أمهاتهم ، لا يكلم مواطن مواطناً بل يبيع زميله كما تباع الحيوانات التى لا روح لها فى الأسواق ، وأى مقطف رخيص من لدن عاهل أجنبى ، بل ومن غير عاهل ، من أى رئيس

بولندى يركلهم بحذائه الأصفر على أنوفهم ، يعتبرونه أعز عليهم من كل إخاء .

وحتى أحقر وأدنى هؤلاء الأوغاد ذلك الذى ينزل بتملقه وتمرغه إلى الرغام ، حتى هذا أيها الإخوان فيه جمرة متأججة من الإحساسات الروسية ولا بد أنها ستلتهب وتشتعل يوما ، وسوف يجىء يوماً يقلب التعس النكد يديه ويمزق شعره ويصب اللعنات على حياته الرخيصة الدنيئة ويستعد للتكفير عن عاره بصنوف من التعذيب .

ليعلموا جميعاً أى زمالة نعنيها على أرضنا الروسية ! أما عن الموت ! لماذا ؟ لا أحد منهم يستقبل الموت كما نستقبله ، لا أحد منهم يقدر ، إن طبيعتهم الواجفة من طبيعة قلوب الجرذان لن تسمح لهم بذلك .

وفرغ الزعيم من كلامه ، ثم وقف صامتاً ، وهو ما زال يهز رأسه التى شابت من أعمال القوزاق .

وفعلت تلك الكلمات فيمن كان يستمع إليه أفاعيلها ، وخرجت من القلب فانطلقت إلى القلب .

ووقف أكبرهم سناً هادئاً بين الصفوف ، وكانت رؤوسهم البيضاء منكسة ، والدموع تفيض من عيونهم ، ثم أخذوا يجففونها بأكمامهم . ولوح الجميع بأيديهم وهزوا رؤوسهم الرزينة كما لو كانوا جميعاً متفقين على هذا العمل .

كان واضحاً أن تاراس العجوز قد أثار فى كثير منهم شتى المشاعر والأحاسيس العزيزة والحبيبة إلى النفس والتى تحيا فى قلب كل امرئ صقلته الشدائد والجهاد والشجاعة ومتاعب الحياة أو تلك التى تحيا فى قلب نقى شاب ، إن يكن لا علم له بها إلا أنه يحن إليها فى حماسة الشباب بطريقة تدخل البهجة إلى آبائه العجائز.

وفى خلال ذلك كانت جنود العدو قد برزت من المدينة المحاصرة ، يدقون الطبول ، وينفخون فى الأبواق . وكان النبلاء يضعون أيديهم على خواصرهم ، يركبون الخيل ويحوطهم جموع لا تحصى من الأتباع .

وأعطى القائد الصارم تعليماته ، وأطبقوا متكتلين على معسكرات القوزاق ، وأسلحتهم المرفوعة تتهدد وتتوعد ، وبنادقهم ذات الطراز العتيق مصوبة ، ودروعهم النحاسية تتوهج بينما كانت أعينهم تلمع .

ولما لاحظ القوزاق أنهم قد اقتربوا من مرمى بنادقهم ، انطلقت رصاصاتهم من أفواه البنادق الطويلة ، واستمروا فى إطلاق النار دون توقف . وتردد قصف الصوت فوق السهل والمرعى ، مختلطاً كزئير دائب ، وأصبح السهل محاطاً بالدخان وظل الزابورجيون يطلقون النيران دون أن يتوقفوا حتى لاستنشاق الهواء فى حين وقف من وراء صفهم الأول من يعبىء البنادق لمن هم فى الصف الأول . وبهذا فوجىء العدو وأسكتوه

— هذا العدو الذى لم يفهم كيف أن القوزاق يطلقون البنادق دون إعادة تعبئتها ! !

وكان الدخان الذى أحاط الجيشين قد غدا كثيفاً حتى أن أحداً لم يكن يستطيع أن يرى القريبين منه ، لم ير أحد من سقط أولا ومن سقط بعده من بين الصفوف . ولكن البولنديين أحسوا جيداً بوطأة إطلاق النار وشدة احتدام المعركة . وعندما تراجعوا لينقذوا أنفسهم من الدخان ولينظروا ما حواليهم ، ألفوا كثيراً من رجالهم قد افتقدوهم ، ولو أن اثنين أو ثلاثة فى المائة من القوزاق قد قتلوا إلا أنهم رغم ذلك استمروا فى إطلاق النيران من بنادقهم دون توقف .

وحتى المهندس الفرنسى قد أخذه العجب من خططهم التى لم ير مثلها من قبل ، فقال فى محضر من الجميع : « هؤلاء الزابورجيون رجال شجعان . وهكذا يكون خوض المعارك فى البلاد الأخرى أيضاً ! » . ونصح بأن تصوب المدافع على الفور على المعسكرات وزأرت المدافع المصوبة من حديد الظهر بفوهاتها الواسعة ، ومادت الأرض ودوت بعيداً وتصاعد الدخان كثيفاً فوق السهل بأكمله .

وانتشرت رائحة البارود فى شوارع المدينة وميادينها . ولكن رجال المدفعية طاشت طلقاتهم المرتفعة ، وأخذت القنابل المستديرة الحمراء كالحمم ترسم قوساً واسعاً . وبصوت رهيب نزلت

فوق رؤوس القوزاق وانغرست فى بطن الأرض تمزق وتقذف بالتربة السوداء فى الهواء . وقطع المهندس شعر رأسه لما شهده من قلة المهارة فتولى بنفسه إطلاق المدفع غير عابئ بطلقات الرصاص من القوزاق التى كانت تنهمر حامية متتالية .

ورأى تاراس من بعيد أن جميع قبائل بنزاماى وستيليكيف قد أصبحوا فى خطر دائم فنادى بصوت كأنه قصف الرعد : ابتعدوا عن العربات حالا واركبوا جيادكم جميعاً . وما كان الوقت ليسمح لهم بإتيان هذين الأمرين لو لم يهرول أوستاب إلى وسط العدو ويلقى على الأرض بمشاعل المدافع من أيدى ستة نفر من المدفعية غير متمكن من بلوغ الأربعة الباقين فقد دفعه البولنديون إلى الوراء .

وفى أثناء ذلك أمسك المهندس الفرنسى بفتيل ليشعل أكبر المدافع جميعاً ، مما لم يشهد القوزاق مثيله من قبل . وكان فاغراً فكيه المريضين بشكل مخيف ، يختبئ الموت فيه لألوف الأنفس . ولما اهتز وبدأ يزأر تبعته المدافع الثلاثة الأخرى وأخذت الأرض تهتز مرددة صداه بأربع قذائف مدوية أحلت الويلات .

كم من أم عجوز ستندب ابنها القوزاقى ، وتلطم صدرها الذاوى بيدين وهن العظم منهما ، وكم من أرملة سوف تصبح فى جليكوف وتيميروف وتشيزيجوف والمدائن الأخرى .

ستتوجه المرأة المسكينة كل يوم إلى السوق تمسك بكل عابر ، وتحدق النظر فى كل فرد لترى أن وحيدها الغالى ليس من بينهم ، ولئن كان سيمر فى الغد بالمدينة كثرة من الجنود فإن بصرها لن يقع أبداً على عزيزها بينهم . .

إن نصف قبيلة نيزاماى قد أصبح أثراً بعد عين ! ! ، وكما يهبط الندى على حين غرة على الحقل حيث سنابل القمح تشع كالذهب فتذروه كالهشيم كذلك رقد هؤلاء .

ثار القوزاق واندفعوا إلى الإمام وغلا الدم فى عروق الزعيم كوكوبينكوحين رأى خيرة رجال القبيلة يهلكون وفى مثل اللمح الخاطف شق طريقه ومعه البقية الباقية من القوزاق إلى وسط صفوف العدو . وفى ثورة الغضب ، مزق إرباً أول رجل قابله وجعل رأسه كرأس القرنبيط ، وأنزل الكثيرين من على جيادهم وكان يطعن برمحه الفارس والجواد على السواء حتى بلغ رجال المدفعية واستولى على أحد المدافع .

وهناك وجد أن زعيم قبيلة أومان چوسكا على وشك الاستيلاء على المدفع الكبير فتركه وقبيلته هناك واستدار برجاله القوزاق صوب كتلة أخرى من الأعداء .

وحيثما مر قوزاق نيزاماى تركوا وراءهم طريقاً وحيثما تلفتوا تركوا درباً مملوءاً بجثث القتلى من البولنديين .

وكان يمكن رؤية صفوفهم وهل تقل وتنقص ، لقد كان الموت

يحصدهم حصداً وكان ڤوفتيزنكو يقاتل قتالا شـديداً بجوار العربات وأمامه تشيريفسنكو وعلى بعد يقاتل ديجينارنكو ومن ورائه زعيم القبيلة فيرتخفبست .

وكان ديجينارنكو قد طعن برمحه اثنين من النبلاء وكان يهجم الآن على خصم ثالث عنيد خفيف الحركة قوى البنية يرتدى لباس حرب سابغ وبصحبته خمسون من أفراد الحاشية .

ورد هـذا الخصم العنيد ديجينارنكو بعنف وطرحه على الأرض وهز سيفه فوقه صائحا إن أحداً من كلاب القوزاق لن يجرؤ على منازلتى !

ووثب موسى شيلو إليه قائلا : ها هو واحد لها !

وقد كان قوزاقياً مفتول العضلات اختير مراراً زعيما فى أسفار البحار ، واحتمل كثيراً من الشدائد من كل نوع . فقبض عليه الأتراك مرة هو ورجاله القوزاق على مقربة من طرابيزون وجعلوهم عبيداً فوق السفائن وقيدوهم من أيديهم وأرجلهم فى الأغلال ، ومنعوا عنهم الأذرة مرة زهاء أسبوع وكانوا لا يشربون أثناءه سوى المـاء الملح الأجاج . واحتمل العبيد المساكين صابرين ، مؤثرين ذلك على التنكر لملتهم الأرثوذكسية ولـكن الزعيم موسى شيلو لم يعد يطيق هذا العذاب ، فداس القانون السماوى تحت الأقدام ، ولف العمامة الملعونة فوق رأسه الآثم ، وكسب ثقة الباشا ، وأصبح خازن المفاتيح ورئيساً للرقيق . وحزن الرفاق

المساكين أيما حزن ، علماً منهم بأنه عندما يخسر أحدهم عقيدته وينضم إلى مضطهديهم فإن جبروته وظلمه يصبحان أشد وأقسى احتمالا من أى كافر ، وقد تحقق ذلك فإن موسى شيلو أوثقهم كل ثلاثة معاً فى أغلال جديدة ، وأخذ يلهبهم بسياط قاسية قطعت أجسامهم ، وكان يصفعهم دون شفقة أو رحمة على أقفيتهم ولكن ما أن أخذ الأتراك المرح لكسبهم مثل هذا الخادم وبدأوا يشربون ويلهون ، غافلين أحكام دينهم ، حتى أخذ المفاتيح الأربعة والستين ، ووزعها على الرقيق ليفكوا أغلالهم ويقذفوا بسلاسلهم فى البحر ، واستبدلوا بها سيوفاً يمزقون بها الأتراك . وأخذ القوزاق مغانم وفيرة وعادوا إلى أوطانهم وعلى رؤوسهم أكاليل الغار .

وطالما عزفت قيثارة المنشد وتغنت بامتداح موسى شيلو ، وكان يمكن أن ينصبوه رئيساً لكنه كان شخصاً غريب الطباع . وكان فى بعض الأحايين يأتى ضروباً من أعمال البطولة لا يستطيعها أحد من العقلاء إلا أنه فى أحايين أخرى كان يسيطر عليه الغباء فكان يشرب ويلهو ويضيع أمواله بدداً . كان مديناً لكل الناس فى بلاد الستش وكان يسرق كأى لص عادى . وذات أمسية أخذ عتاد قوزاقى من قبيلة أخرى بأكمله ورهنه عند حارس حانة الخمر . ومن أجل هذا العمل الفاضح أوثقوه إلى عمود على سارية ووضعوا بجواره هراوة حتى إذا مر به غريب ، بادره بضربة منها حسب

قوته ، ولـكن أحداً من الزابورجيين لم يرفع الهراوة عليه ، فقد ذكروا له ماضى خدماته .

كذلك كان موسى شيلو القوزاقى . وصاح هو مهاجماً منازله :

هنا كثيرون سيضربونكم أيها الـكلاب .

أما كيف تقاتلا فإن زردهما ودرعيهما تثنت تحت وطء الضربات ، وشق الشيطان البولندى درع شيلو ، وبلغ نصل سيفه إلى لحمه ، واصطبغ قميص القوزاقى بلون قرمزى ، ولـكن شيلو لم يأبه لذلك وهز رافعاً ذراعه المفتول وباله من ذراع ! فأذهله بضربة مفاجئة وتناثرت خوذته النحاسية قطعاً وترنح البولندى ثم سقط واستمر شيلو يمزق ويهشم خصمه المذهول ولم يتوان فى إهلاك عدوه وكان خيراً له أن يدبر ، فقد طعنه واحد من حاشية البولندى بسكين فى عنقه . وتلفت شيلو ليرى قاتله ولـكنه كان قد اختفى وسط دخان البارود فـكنت تسمع رعد الفرقعة من كل جانب بينما كان شيلو يترنح وقد تأكد أن جرحه مميت . وهوى على الأرض وأمسك جرحه بيده وقال لرفاقه :

وداعاً أيها الإخوان السادة . يارفاق ! أدعو الله أن يحفظ الأرض الروسية المقدسة وأن يصون مجدها إلى الأبد .

وأسبل عيناه المظلمتان ، خرجت روحه القوزاقية من داخل إطارها بينما كان فيرتنجفست يدك صفوف البولنديين وبالايان مندفع فى صميم المعمعة .

وقال تاراس منادياً الزعماء : ماذا ترون أيها الإخوان ؟ ما زال هناك بارود فى مستودعات البارود . إن قوة القوزاق لم تهن أو تضعف بعد . إن القوزاق لا يستسلمون .

وحمل القوزاق مرة أخرى وأدخلوا الارتباك والفوضى فى صفوف الأعداء . وضرب القائد الضئيل جماعته وأمر بثمانية أعلام ترفع لكى يعود جميع رجاله المتناثرون فوق السهل . وهرول البولنديون إلى أعلامهم ، ولكنهم لم يكونوا قد نجحوا بعد فى تنظيم صفوفهم عندما حمل عليهم من الوسط الزعيم كوكو بينكو وقبيلة بنزاماى القوزاقية . وتلاحم مع القائد القوى نفسه ، ولم يصمد القائد أمامه ، وأدار جواده مولياً وركض عليه هارباً .

وطارده كوكوبينكا عبر السهل ، وفصله عن فرقته ، وعندما لاحظ ستبان جوسكا أن فرقته فى أعلى جناح للجيش أخذ يقطع السبيل عليه ، وكان الموقف فى يده ، ورأسه ملاصقة لعنق الجواد متخيراً اللحظة التى يلقى بها وثاقه حول عنقه . وامتقع لون القائد الكولونيل وأمسك الحبل بكلتا يديه محاولا أن يقطعه . ولكن طعنة نجلاء أنفذت السهم إلى بطنه ، وهناك بقى راقداً ملتصقاً بالأرض .

ولم يكن جوسكا أحسن مصيراً فقبل أن يعلم القوزاق بالأمر كان قد وضع على رماح أربع . وتمكن الشيطان المسكين بصعوبة

وقبل فوات الوقت أن يتفوه قائلا : أهلك الله أعداءنا ، وأسعد الله ديارنا الروسية إلى الأبد .

ونظر القوزاق حواليهم ، وكان ثم متيايتسيا قائماً على جناح الجيش ، يلقى بالصفعة المذهلة تلو الأخرى على خوذات البولنديين وعلى الجناح الآخر من الجيش . وكان الزعيم نيفيكيشكى يحمل بجواده ومعه رجاله ، وكان إلى جوار العربات زا كريتجوبا يدق العدو دقاً ، وإلى جوار العربات البعيدة كان بيزارينكو الثالث يصد ثلة كاملة من الأعداء ، وعلى بعد كانوا قد التحموا وتماسكوا على العربات بالذات .

وهنا نادى الزعيم تاراس وهو يركض بحصانه أمامهم : أيها الإخوان : كيف حالكم . ما زال يوجد بقية من البارود فى المستودع . إن قوة القوزاق لم تهن . إن القوزاق لا يستسلمون .

وكان بوفديج قد هوى من عربته ، وأصابته طلقة تحت القلب وبينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة قال : يحزننى أن أترك العالم . منح الله كل رجل منكم هذه الخاتمة ، وأدام على الأرض الروسية عزها ومجدها . وصعدت روح بوفديج إلى بارئها فى السماء لتذكر للرجال الكبار الآخرين الذين فارقوا هذه الحياة منذ عهد طويل كيف أنهم يبلون فى الحروب على الأرض الروسية أحسن البلاء ، وكيف أنهم فوق ذلك يموتون من أجل العقيدة المقدسة .

وهوى فى إثره إلى الأرض بالابان زعيم القبيلة بعد أن تلقى

ثلاث طعنات نجلاء من الرمح والرصاص وضرب السيف . لقد كان أحد صناديد القوزاق وتزعم عدة حملات بحرية ، ولـكن أعظمها فخراً له كانت غزوته لساحل الأناضول . كانوا قد استولوا على كثير من المال والبضائع التركية الغالية والسلع والأقمشة ولـكن نزلت بهم الصعاب وهم عائدون من رحلتهم إلى الأوطان . إذ أخذوا يسقطون والعياذ بالله بمدافع الأتراك ، وانطلق مدفع قائم على جانب إحدى السفن التركية فقلب نصف مراكبهم وأغرق أكثر من قوزاق ، ولولا (البوص) المربوط إلى جوانب المراكب لما أنقذت من الغرق . وجدف بالابان بأسرع ما يستطيع وكان يتوقف عند بزوغ الشمس حتى لا يستطيع الأتراك رؤيته ، وكانوا طوال الليل ينضحون الماء بالدلاء وقبعاتهم ويرقعون الثقوب التى أحدثتها طلقات الرصاص . ويقطعون سراويلهم القوزاقية الطويلة ليتخذوا منها شراعاً . وأقلعوا بها على عجل . وسبقوا بها أسرع السفن التركية ووصلوا سالمين آمنين من المخاطر ، بل إنهم أحضروا معهم بدلة قداس مطرزة بالذهب لرئيس دير ميجيجورسك فى مدينة كييف وحلية من الفضة الخالصة لـكنيسة الشفاعة للبتول المقدسة فى زابورجى . ولطالما تغنى المنشدون على البندورا بحظ القوزاق العظيم .

وهاهو يعانى حشرجة الموت ، حنى رأسه ، وقال فى هدوء :

« أيها السادة الإخوان . إنى أعتقد أننى أموت ميتة شريفة ، لقد

مزقت إرباً سبعة ، ونخست بالرمح تسعة ، ودست بجوادى كثيرين ، ولا أدرى كم عدد الذين أصبتهم رمياً بالرصاص . أدعو الله أن يديم ازدهار أرضنا الروسية إلى الأبد » . وارتفعت روحه إلى بارئها .

يا أيها القوزاق اثبتوا وفرسانكم ! ! ها هو كوكو بينكو قد أطبقوا عليه من كل جانب ولم يبق من قبيلة نيزامى سوى سبعة رجال فى الدرك الأدنى من القوة . بل إن ملابس كوكو بينكو قد تلطخت بالدماء .

وحين رآه تاراس على هذه الحالة أسرع إلى نجدته ، لكن القوزاق لم يدركوه فقد اخترق الرمح قلبه مباشرة وارتمى فى أحضان القوزاق الذين سندوه بينما كان دمه الشاب يتدفق كالنبيذ الغالى الذى يأتى به من الأقبية فى آنية من الزجاج هؤلاء الخدم الكسالى الذين تتعثر أقدامهم فى العتبات فما يلبثوا حتى ينكسر ما يحملونه من القناني الغالية ويسيل النبيذ على الأرض حتى آخره . ويأتى السيد مهرولا يقطع شعره لأنه احتفظ بهذا النبيذ ليحتفى به فى أسعد لحظة من لحظات حياته حينما يلقى صديقاً من أصدقاء الصبى بينما تقدم عمره ، فينهلا منه نخب الأيام الخوالى عندما كان الإنسان يمرح ويفرح بطريقة أفضل مما هى الآن .

وقلب كوكو بينكو عينيه حواليه وقال : أشكر الله أيها الرفاق ، إنى أموت أمام أعينكم ، أدعو الله أن يكون الذين يموتون

معنا رجالا خيراً منا ، وأدعو السيد المسيح لأرضنا الروسية المحبية أن تظل جميلة ورائعة . وصعدت روحه الشابة إلى بارئها ، حملتها الملائكة بأجنحتها إلى السماء لتقضي وقتاً عظيما هناك ، ولسوف يقول له السيد المسيح : اجلس أنت يا كوكو بينكو عن يميني . إنك لم تخن الزمالة ، ولم تصنع ما يشين الأمانة ، ولم تتخل عن رجل فى مواطن الشك ، إنك حرست كنيستى وصنتها .

لقد حزن الجميع لموت كوكو بينكو ، وغدت صفوف القوزاق تتناقص وتنكمش ، لقد غاب عنها كثيرون من الأبطال الصناديد ومع ذلك فقد ظلوا صامدين لا يتزحزحون عن مواقفهم .

ونادى تاراس البقية الباقية من القبائل : كيف الحال الآن أيها الإخوان . ما يزال لدينا بارود فى المستودع . ولم تتكلم أسيافنا بعد . ولم تهن بعد قوى القوزاق . إن القوزاق لا يستسلمون .

وأجاب القوزاق : ما يزال لدينا كفاية من البارود أيها الرئيس ! وأسيافنا ما زالت مشحوذة ! وقوة القوزاق لم تهن بعد ! إن القوزاق لا يستسلمون .

وحملوا كرة أخرى على جيادهم كأنهم لم يعانوا أىّ خسائر ، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم سوى ثلاثة زعماء من زعماء القبائل وكانت أنهار الدماء الحمراء تتدفق فى كل مكان ، وكانت جثث القوزاق وأعدائهم مكدسة فى شكل قنطرة عالية فوقهم .

وحانت من تاراس نظرة إلى السماء ، فرأى جماعة من البزاة

الجارحة ، تملأ وجه السماء . . . . أى وليمة ستكون لهم ! ! !
كان هنا ميتليتسيا يرفعونه على رمح وكانت رأس بيزارينكو الثانى تتدحرج هناك بينما كانت أهدابه ترفرف وكان أوخريم جوسكا قد تهشم على الأرض وتقطع إربا .

ولوّح تاراس بمنديله قائلا : الآن » ، والتقط أوستاب الإشارة وجاء مندفعاً من مخبأ وضرب جياد العدو ضربة مميتة . وتقهقر البولنديون قبل الهجمة ، وأخذ يدفعهم شيئاً فشيئاً تجاه ذلك الجزء من الميدان المغطى بالمزاريق والأوتاد ، وتعثرت الخيل وسقطت ، وسقط ركابها على رؤوسهم وفى تلك اللحظة رأى القوزاق القراصنة الذين كانوا يقفون بعيداً خلف العربات أن العدو قد أصبح على مرمى نيرانهم ففاجأوهم بوابل من النيران .

وساد البولنديين هرج ومرج ، وفقدوا صوابهم تماماً . . وتشجع القوزاق وصاح الزابورجيون من كل جانب : إن النصر لنا . ونفخوا فى النفير ونشروا علم النصر . وإذا بالبولنديين المهزومين يهرولون مدبرين ويختفون فى كل مكان .

ونظر تاراس إلى بوابات المدينة وقال : لا ، إن النصر لم يتم لنا بعد ! وكان حقاً ما قال . فإن البوابات انفتحت واندفع منها فصيلة من الفرسان هى خيرة جنود الفرسان . وكان كل راكب يمتطى جواداً كستنائياً يماثله ، كانوا كلهم فخاماً سريعى الخطى . . .
وركض فارس إلى الأمام ، وكان أشجعهم وأروعهم جميعاً ،

كانت جدائل شعره الفاحم تموج تحت خوذته النحاسية ، وكانت تتماوج على ذراعه شارة من قماش مطرز بيد أجمل وأرشق فتاه .

وذهل تاراس حين رأى أنه أندريا ، وانغمس هذا فى وطيس المعركة مشوقاً لأن يبرهن على جدارته بالشارة التى ربطت على ذراعه ، كان يطير كـكلب الصيد ، وكان أرشق وأسرع وأصغر من فى الجماعة طيراً . حفزته مهارة الصائد أن يمرق متقدماً ، وقدماه مشدودتان ، وجسمه مائل ، يفتت الثلوج وكان سريعاً يسبق الأرنب البرى الذى يطارده الصيادون .

ووقف تاراس العجوز ينظر إليه وهو يشق طريقه ويشتت شمل من يواجهه ويجز رقابهم ويضرب ذات اليمين وذات الشمال .

ولم يطق تاراس صبراً لهذا المنظر فصاح صيحة مدوية : ماذا ؟ حتى زملاءك ؟ ؟ إنك تقتل زملاءك يا ابن الشيطان ؟

لـكن أندريا لم يكن يرى أحداً أمامه صديقاً كان أم عدواً . لم يكن يرى إلا خصائل الشعر ، خصائل طويلة ، وصدراً أبيض فى لون بجع النهر ، ورقبة ناصعة كالثلج ، وأكتافاً جميلة وكل ما خلقه الله لـكى يقبّـله الإنسان فى عاطفة جنونية .

وصرخ تاراس فيهم : أيها الرجال . استدرجوه عند الغابة هناك . وفى لمحة خاطفة اتجه ثلاثون من أسرع القوزاق لإنفاذ أمره ، ثبتوا قلنسواتهم الطويلة على رؤوسهم وسارعوا لمقابلة الفرسان ، وهجموا على مقدمة الجناح فأدخلوا الذعر والارتباك بين

صفوفهم ، وفرقوهم وأنزلوا بهم بضع ضربات قاصمة ، فى حين أنزل جولوكوبيتينكو صفحة نصله على ظهر أندريا . . . وفى هذه اللحظة أسرع القوزاقيون للفرار ! ! !

كم ارتفعت حرارة الحماس عنـد أندريا ؟ كم بلغ غليان دم الشباب فى كل عرق ينبض فيه ؟ لقد غرس مهمازه الحاد فى خاصرة جواده وبدأ يطارد فى أقصى سرعة هؤلاء القوزاق . لم يكن يلتفت أبداً إلى الوراء ولم يلاحظ أنه لم يرافقه من رجاله إلا عشرون فقط ! !

وركض القوزاق مسرعين إلى الغابة واندفع أندريا على جواده وكاد يلحق بجولوكوبيتنكو لولا أن أمسكت يد قوية بسرج جواده . والتفت أندريا حوله فإذا به أمام تاراس . . .

ارتعدت فرائصه واصفر لونه بغتة . . . شأن صبية المدارس الذين يسيء أحدهم إلى زميله فيضربه بالمسطرة على وجهه ويثور المضروب ويثب من مقعده ليطارد زميله الضارب . . . ويود أن يمزقه إرباً . . . ولـكنه يصطدم فجأة أثناء هـذه المطاردة برؤية مدرسة داخلا حجرة الدرس فتنطفئ بغتة انفعالاته الجامحة ويكتم غضبه الذى لا حول له ولا قوة .

وكذلك كان أندريا . لقد زال حماسه وغضبه فى لحظة واحدة ، وأصبح لا يرى إلا أباه المخيف الماثل أمامه .

وابتدره تاراس متفرساً فى عينيه : حسناً وماذا ستفعل الآن ؟

ولم يدر أندريا ماذا يقول وظل صامتاً وعيناه منكستان إلى الأرض .

— حسناً يا بنى . هل عاونك البولنديون ؟

ولم ينطق أندريا !

— هكذا تخون . . . تخون دينك ؟ تخون زملاءك ؟ . . . حسناً ترجل عن ظهر جوادك .

وفى انصياع كالطفل ترجل أندريا . . ووقف أمام تاراس تعلوه صفرة الموت .

وقال تاراس : قف ساكناً ولا تتحرك . لقد أنجبتك وسأقتلك .

ثم خطا إلى الوراء ، وأخذ بندقيته من فوق كتفيه . ووقف أندريا باهت اللون ، كالقماش الأبيض ، وتحركت شفتاه برقة إذ نطق باسم : لم يكن اسم بلاده ولا اسم والدته ولا اسم من أسماء إخوته ولكنه كان اسم البولندية الحسناء . . . وأطلق تاراس بندقيته .

وكما تحصد سنابل القمح بالمنجلة ، وكما يحس الحمل الصغير بوخز الحديد فى قلبه مال رأسه وسقط على الحشيش لم ينبث ببنت شفة .

ووقف قاتل ولده ساكناً ، وأخذ يرنو طويلا إلى الجثة الهامدة . لقد كان رشيقاً حتى فى الموت ! وكان وجهه الممتلئ

رجولة والذى كان منذ برهة فى عنفوان القوة والفتنة الساحرة لكل النساء ما يزال بالغ الجمال والفتنة وكان حاجبه الأسود كقماش الكريب القاتم يبرز اصفرار تقاطيع وجهه .

وقال تاراس : لقد كان يمكن أن يكون قوزاقياً عظيما ، كان طويل القامة أسود الحاجب له وجه نبيل وذراع قوية فى الحرب .. ولكنه مات . مات بطريقة غير شريفة كالكلب الوضيع .

وسأل أوستاب وقد عاد مسرعاً على جواده : ماذا فعلت أيها الرئيس (يابانكو) ؟ أنت الذى قتلته ؟

وتفرس أوستاب ملياً فى العينين الثابتتين . وقد أفعم قلبه بالكمد لما حل بأخيه . ثم قال :

لنضعه فى كفن باحترام أيها الرئيس (يابانكو) حتى لا يسىء أى عدو إلى شرفه ، ولا تمزق جسده الطيور الجارحة

وقال تاراس : سوف يدفنونه دون أن نساعدهم . سيجد كثيراً من الباكيات والنادبات ...

وظل برهة أو أكثر يفكر فيما إذا كان يتركه فريسة للذئاب أم يبدى احترامه لشجاعته كفارس ، شجاعته التى ينبغى على الشجعان أن يمجدوها فى أى إنسان .

وعند ذاك لمح جولوكوبتيتنكو يركض متجهاً إليه : الويل لنا أيها الزعيم ، فقد اشتد ساعد البولنديين وجاءتهم إمدادات

جديدة لإنقاذهم . وما أن فرغ جولوكوبنيتفنكوا من كلامه حتى كان فوقتيزنكو هو الآخر قادماً وهو يركض : الويل لنا أيها الزعيم ، إن قوة جديدة قادمة الآن .

وما أن فرغ فوقتيزنكو من كلامه حتى كان بيزارنكو يهرول مسرعاً : أين أنت أيها الرئيس (يابانكو) ، إن القوزاق يبحثون عنك . لقد قتل نيفليشكى وزادورجني ، ويشيريفشنكو ، ولكن القوزاق صامدون . إنهم لن يفنوا حتى يروك ، إنهم يريدون أن ينظروا إليك فى ساعة الموت ! !

وصاح تاراس : إلى الخيل يا أوستاب .

ثم أسرع إلى رجاله القوزاق ليروه مرة أخرى وليتيح لهم أن يروا زعيمهم فى ساعة الموت .

وقبل أن يخرجوا من الغابة ، أحاط بهم جنود العدو من كل صوب ، وبرز الفرسان فى كل مكان مدججين بالسيوف والرماح من بين الأغصان !

صاح تاراس : أوستاب ! أوستاب ! لا تستسلم . . واستل سيفه من غمده وأخذ يضرب كل مضرب . وعلى حين فجأة وثب ستة من الرجال لكنهم اختاروا ساعة منحوسة فقد طارت رأس أحدهم عن جسده وانقلب آخر رأساً على عقب واخترق الرمح أضلع الثالث وأصابت كرة محمية صدر جواد الرابع الذى استطاع

تحاشى رصاصة ، لـكن الجواد المهتاج شب على قدميه ثم هوى على الأرض ساحقاً راكبه تحته .

ونادى تاراس : حسناً فعلت . حسناً فعلت يا أوستاب . سأعاملهم بنفس الطريقة . وظل يضرب مهاجمه ذات اليمين وذات الشمال متقدماً على من حواليه ، لا تبرح عينه أوستاب وهو فى المقدمة .

ورأى ما لا يقل عن ثمانية رجال يطبقون على أوستاب . فصاح قائلا : أوستاب ! أوستاب ! لا تستسلم .

ولـكنهم كانوا قد تغلبوا على أوستاب ، وألقوا الحبل حول عنقه ، وهاهم يشدون وثاقه ويحملونه معهم .

وصاح تاراس : أوستاب ! أوستاب . وأخذ يشق طريقه نحوه ، يقطع إرباً كل من اعترض طريقـه وهو يصيح : أوستاب ! أوستاب !

غير أن شيئاً أشبه بحجر ثقيل صدمه فى ذلك الوقت ، وأخذت الدنيا تلف وتدور أمام ناظريه ، ولمت أمامه لبرهة من الوقت هرج من الرؤوس والرماح والدخان وشرر النيران . . . ثم رأى ، كأنه فى حلم سريع ، أغصاناً مورّقة ، وهوى بعدئذ متحطما كشجرة القرو المتكسرة . وغطى عينيه ضباب كثيف .

الفصل العاشر

وقال تاراس : كم لبثت نائماً ؟ وكان صوابه قد عاد إليه بعد نوم كنوم السكير المخمور . وحاول أن يتفرس فى الأشياء التى حواليه . وقد نزل بأعضاء جسمه ضعف شديد مخيف أقعدها . كما كانت تتراءى راقصة أمام عينيه بغشاوة حوائط وأركان غرفته ورأى أخيراً بجواره توفكاش جالساً ، يصغى لكل لفظة يفوه بها !

وفكر توفكاش : نعم وربما كنت قد نمت إلى الأبد .

ولكنه لم يفه بأى كلمة وإنما هزّ أصبعه يأمره السكوت .

وسأل تاراس : ولكن خبّرونى ؟ أين أنا الآن ؟

وكان يجمع شتات فكره محاولا استرجاع ما وقع له .

فصاح رفيقه فى غلظة : صه ! ماذا تريد أن تعلم ؟ لقد قطع خط الرجعة عليكم ومضى أسبوعان ونحن نركض بك دون توقف . . . وأنت محموم لا تنطق بشىء إلا بما هو هذيان وهراء وهذه أول مرة تنام فيها نوماً هادئاً فالتزم الهدوء إذا كنت لا تريد أن تنزل بالويلات على رأسك .

ولكن تاراس كان ما يزال يحاول استجماع أفكاره وتذكر ما قد حدث : ماذا ؟ لقد كنت محوطاً . وكدت أقع فى أسر البولنديين . ولم يكن لى من سبيل إلا أن أقاتل ذلك الجمع .

وصاح توفكاش بغلظة كأنه ممرضة نفد صبرها فصرخت فى

وجه طفل قلق متعجرف : قلت لك امسك عليك لسانك أيها الشيطان الرجيم . أى فائدة تعود عليك من معرفة كيفية نجاتك ؟ يكفى أنك نجوت . . . لقد كان هناك رجال أبوا أن يهجروك . وهذا كلّ ما يصح أن تعلم . وإن أمامنا سفراً طويلا وطريقاً وعراً : هل تظن أنك تقوّم كأى قوزاق عادى ؟ لقد وضعوا ثمناً لرأسك ألفى دوقات .

وفجأة صاح تاراس : وماذا كان من أمر أوستاب ؟

ومزق الضمادات من جراحه وألقى بها بعيداً ، وحاول أن يقول شيئاً ثم أخذ يهذى . . . لقد غلبته الحمى والهذيان مرة أخرى ، وانفجر من فمه سيل من الكلمات غير المفهومة وغير المتماسكة .

ووقف زميله الوفىّ على رأسه يسبُّه ويعنفه . ثم أمسكه من قدمه وساقه وذراعه ولفه كالطفل . وأعاد وضع الضمادات فلفه فى جلد الثيران وربطه ، ثم أوثقه بالحبال إلى سرجه وأخذ يركض به بعيداً .

سأوصلك إلى هناك حياً أو ميتاً ، ولن أدع البولنديين يسخرون من عظامك ودمك القوزاق ، وأن يمزقوا جسدك نصفين ويلقوهما فى النهر ، وإذا كان للنسر أن يفقأ عينيك فى محاجرها ، فليكن نسر السهل ، نسرنا نحن ، وليس نسراً بولنديا ، ليس واحداً مما تطير فوق التربة البولندية . وسأوصلك إلى أوكرانيا حياً أو ميتاً .

هكذا نطق الزميل الوفى ، وظل الليالى والأيام يركض به لا يذوق الراحة حتى بلغ به بلاد الستش الزابورجية فاقد الوعى .

وهناك أخذ يعنى به ويعالجه بالأعشاب والسوائل فى غير كلال أو ملل واستدعى لجواره امرأة يهودية تجرعه الأدوية طوال شهر كامل وأخيراً بدأ تاراس فى دور النقاهة . وكان للعقاقير أو تكوينه الفولاذى أو لأيهما الفضل فى هذا البرء .

وبعد مضى شهر ونصف شهر وقف على قدمه ، وبرئت جراحه ، ولم يبق إلا سحجات كأثر للجروح الخطيرة التى كان قد أصيب بها .

ودبت فى نفسه الكآبة وحلّ الأسى فى قلبه بشكل ملحوظ . وظهرت ثلاث تجعيدات فى جبينه لا تبرحه ، ونظر حواليه الآن ليرى كل شىء فى الستش جديداً ، كل زملائه القدامى قد قضوا ، لم يبق واحد من الأولين الذين وقفوا نفوسهم على القضية العادلة ، على الدين والإخوة . وكذلك أولئك الذين رحلوا مع الرئيس لمطاردة التتر ، لقد طالت غيبتهم ، هلك بعضهم فى المعارك وناه آخرون فى أحراش جزيرة القرم الجدباء التى لا نبت فيها ولا ماء ووقع آخرون فى خزى الإسار وأصبح الرئيس السابق والرفاق القدامى أثراً بعد عين ، وغا البوص فى الأرض القوية الفتيه ! !

بدا له أنه كانت هناك وليمة صاخبة عظيمة ، كسرت صحافها تكسيراً ، ولم يبق بعدها قطرة من نبيذ ، وقد نهب الأضياف والخدام كل الكؤوس ، والأقداح الغالية . . . وها هم الجنود وقد وقفوا منكسى الرؤوس ، يفكرون ، « تمنيت لو لم يكن هنا حفل وولائم أبداً » . وعبثاً حاولوا التسرية عن تاراس وإدخال السرور والأمل إلى نفسه . وعبثاً حاول منشدو القيثارة (الباندورا) بلحاهم الشيباء أن يبددوا حزنه وهم يمجدون مثنى وثلاث فعاله القوزاقية .

كان يحملق زائغ البصر متجهماً إلى كل شيء . كان يبدو على وجهه الأبله أحيانا كمدٌ لا ينطفىء . كما كان ينكس رأسه فى هدوء ويئن أنيناً : ولدى ! يا أوستابى !

وارتحل الزابورجيون فى غارة بحرية ، وأنزلوا إلى نهر الدنيبر مائتى قارب وشهدت فعالهم آسيا الصغرى برؤوسهم الحليقة وجدائل شعرهم المصفرة عندما سلطوا النار والسيف على شواطئها المزدهرة ، ورأت عمائم رجالها مبعثرة كزهرة شبابها فوق الميدان المدرج بالدماء ، وطافية فوق سطح الماء .

لقد شهدت عديداً من سراويل الزابورجيين الفضفاضة ، ملطخة بالقار ، وأيدى مفتولة ممسكة سياطاً قوزاقية . والتهم الزابورجيون كل الأعناب ، وتركوا القمامة فى المساجد واتخذوا من أثمن الشيلان الإيرانية أربطة يتمنطقون بها على معاطفهم

السوداء . وبعد فترة طويلة كنت تلقى فى تلك البقاع الغلايين الزابورجية القصيرة .

وعادوا جذلين فرحين ؛ ولحق بهم مركب تركى ذو عشرة مدافع ، وبطلقة واحدة من عرض المركب شتت شمل سفنهم الضعيفة كأنها الطير . وغرق ثلثهم فى اليم السحيق ، أما الباقون فقد جمعوا شتاتهم مرة أخرى ووصلوا إلى مصب نهر الدنيبر ومعهم اثنى عشر صندوقاً صغيراً ملأى بالدنانير . ولكن شيئاً من ذلك كله لم يعد بهم تاراس .

كان يؤثر الذهاب إلى المراعى والسهول كمن يطلب الصيد . ولكن ذخيرته بقيت دائماً دون استعمال ، وكان يضع بندقيته العتيقة جانباً ويجلس حذاء الشاطىء ونفسه مفعمة بالأسى . كم لبث جالساً هناك يحرك رأسه مردداً : إى يا أوستابى ! إى يا أوستابى ! والبحر الأسود أمامه ممدوداً متلألئاً والطير ينعق فى البوص البعيد وكانت شواربه الشيباء تلمع كالفضة والدموع تنهمر إثر بعضها البعض . . .

وأخيراً لم يعد فى قوس الصبر منزع فكان يقول : ليكن ما يكون . سأذهب وأرى بنفسى ما حل به . هل هو حى ؟ أم فى قبره ؟ أميت لم يوسد فى لحده ؟ سوف أعلم مهما كلفنى ذلك . . . .

وبعد أسبوع بلغ أومان وكان شاكى السلاح ممتطيا صهوة جواده ومعه رمحه وسيفه وزمزميته المشدودة إلى سرجه وآنية الثريد

والخراطيش وقيد الخيل وغيرها من العتاد . وتوجه ميمماً شطر كوخ قذر غير مرتب ولا منظم ، وكانت نوافذه الدقيقة تكاد تكون غير منظورة ، قاتمة السواد من جراء سواد الدخان . وكانت المدخنة مسدودة والسقف مخلخلا مملوء بالثقوب التى تغطيها العصافير الدورية ، وعند الباب كومة من القمامة . وكانت تطل من إحدى النوافذ رأس إحدى اليهوديات خلسة ولباس رأسها مرصع الحواف باللآلىء الصافية اللون .

وترجل بولبا من فوق جواده وربط لجامه إلى خطاف حديدى عند الباب ثم سأل : هل زوجك بالبيت ؟

وأجابت اليهودية نعم « بالبيت » . وبادرت بوضع جاروف قمح للحصان وكوبا من الجعة للفارس .

وقال تاراس : حسناً أين رجلك اليهودى ؟

وأجابت اليهودية فى تحشم متمنية لبولبا الصحة وهو يرفع أبريق الشراب إلى شفتيه : إنه فى الحجرة الأخرى يصلى .

— انتظرى هنا . وأعلفى الحصان واروى عطشه حتى أذهب وأتكلم معه على انفراد . إن لدى عملا معه .

ولم يكن اليهود سوى يا نكل . لقد استقر به المقام هناك . يستأجر عقاراً ويدبر للخمر داراً وأخذ شيئاً فشيئاً يستحوذ على النبلاء والأشراف المجاورين . وشيئاً فشيئاً أخذ يمتص أموالهم وأخذت المنطقة تحس إحساساً قوياً بنفوذه الإسرائيلى فيها .

ولم يبق فى دائرة قطرها ثلاثة أميال كوخ واحد ، لقد استنفد كلٌّ وقته وغرضه وأخذ يتهدم . واستهلك كل شىء ولم يتبق سوى الفقر والخرق البالية . وأصبحت المنطقة جمعاء قاعاً صفصفاً كما لو التهمتها النيران أو الطاعون .

ولو أن يانكل ظل هناك عشرة أعوام أخرى لكان قد أحال المقاطعة كلها إلى قفر يباب .

ودخل تاراس إلى الحجرة وكان اليهودى يتعبد ، وكانت رأسه ملتفة بقصاصه قذرة من القماش ، وبينما كان يستدير ليبصق للمرة الأخيرة — حسب تقاليدهم الدينية — إذ وقعت عيناه فجأة على بولبا الذى كان يقف خلفه .

ولمعت فى عينى اليهودى الألفان من الدنانير الموعودة ثمناً لرأس بولبا ولكنه استحيا من جشعه وحاول أن يطفئ فى ذات نفسه تفكيره الأزلى فى الذهب ، الذى هو أشبه بالدودة تلتف حول الروح اليهودية .

وقال تاراس : اسمع يا يانكل .

وبدأ اليهودى يحنى رأسه له وأوصد الباب فى حذر كى لا يراهم أحد سوياً . واستطرد تاراس : لقد أنقذت حياتك . وكان بود الزابورجيين أن يمزقوك إرباً كالكلب . والآن أتى دورك . الآن ينبغى أن تسدى إلى صنيعاً .

وقطب اليهودى وجهه قليلا وقال : « أية خدمة . لئن كانت خدمة تخصك فلماذا لا أفعل ؟

— لا تضيع الوقت فى الحديث . خذنى إلى وارسو .

وأجابه يانكل وقد رفع حاجبيه وكتفيه مشدوهاً متعجباً : إلى وارسو ؟ كيف ذلك ؟ إلى وارسو !

— لا تضيع الوقت فى الكلام . خذنى إلى وارسو وليحدث ما يحدث . أريد أن أراه مرة واحدة أخرى وأكلمه كلمة واحدة ..

— كلمة واحدة مع من ؟

— نعم معه ، مع أوستاب ، مع روحى !

— ألا يعلم سيدى أنه قد . . .

— أعلم كل شىء ، إنهم عرضوا مكافأة ألفين من الدينارات ثمناً لرأسى . إنهم يعلمون قيمتها هؤلاء الأغبياء . سأعطيك أنا خمسة آلاف . وها هى ألفين منها .

وصبّ بولبا الألفى دينار من كيس جلد وقال :

— والباقى عندما أعود .

وأمسك اليهودى على التو منشفة غطى بها النقود ، وأخذ يقول وهو يقلب دنانيره بين أنامله ، ويختبر جودتها بأسنانه :

— أواه ما أجمل هذه النقود الطيبة . إنها نقود جيدة . من يدرى لعل الرجل الذى أراحه الله من هذه النقود الطيبة لم يعش

بعدها ساعة واحدة ، ولـكنه قصد من توه إلى النهر وأغرق نفسه بعد أن فقد تلك النقود البراقة .

— إنى لم أسألك . ربما كنت توجهت بمفردى إلى وارسو . ولـكن البولنديين اللاعين قد يعرفوننى ويقبضون على . إذ أننى لست ماهراً فى أعمال الحيلة والاستخفاء . أما أنتم أيها اليهود فأنتم لها . أنتم يمكنكم خداع الشيطان نفسه . أنتم تعرفون شتى الحيل . ولهذا جئت إليك . وفضلا عن ذلك فإنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً فى وارسو وحدى . والآن فاذهب وأعد عربتك وخذنى إلى هناك .

— وهل يظن سيدى أنه يمكننى أن ألجم فرسى ؟ هل يظن سيدى أنه يمكننى أن آخذك دون أن أخفيك ؟

— حسناً أخفنى ، أخفنى كما تشاء . ربما فى برميل فارغ ؟

— أواه ! أواه ! وهل يظن سيدى أنه يمكن إخفاؤه فى برميل . ألا يعلم سيدى أن كل واحد سيظن أنه مفعم بالفودكا .

— حسناً ! دعهم يظنون أنها فودكا

وكاد اليهودى يجيب وهو ممسك خصلات شعره الصغيرة بكلتا يديه ويرفعها إلى أعلى . إلا أن بولبا قال :

— حسناً . وماذا يخيفك الآن ؟

— ماذا ؟ ألا يعلم سيدى أن الله خلق لنا الفودكا حتى يتيح لـكل فرد أن ينهل منها . إن كل الرجال هناك مولعون

باللذائذ . إن روحهم عدبة حلوة . سيعدو كل شريف منهم بالساعات خلف البرميل وينقب فيه ثقباً . وسوف يرى أن لا شيء يسيل منه . وعندها يقول اليهودى لا يمكن أن يحمل برميلا فارغاً . لا بد أن فى الأمر سرا غامضا ؟ أقبضوا على اليهودى . شدوا وثاقه . خذوا جميع الأموال من اليهودى . خذوه إلى السجن .

فإن كل خطأ يلام عليه اليهودى ، الجميع يعتبرونه كالكلب ، إنهم لا يعتبرونه إنساناً إذا كان يهودياً .

— حسناً فلأوضع مع الأسماك داخل العربة .

— بحق السماء لا أستطيع يا سيدى . لا أستطيع . إن القوم فى بولنده جياع ككلاب الصيد . إنهم سيسرقون كل الأسماك ويكتشفون سيدى .

— حسناً ضعنى إذن فوق ظهر الشيطان . ولكن خذنى إلى هناك . وشمر اليهودى عن ساعده . ومد إليه ذراعيه المفتوحتين . وقال : اسمعنى يا سيدى . سأقول ما سنفعله . إن القلاع والقصور يبنونها الآن فى كل مكان . وقد حضر من الخارج المهندسون الفرنسيون وكميات وفيرة من الطوب والحجر تنقل الآن على الطرق . فليرقد سيدى فى قاع العربة . وسأضع أحجار الآجر فوقه . إن سيدى يبدو صحيحاً معافى ولهذا فلن يلحقه أذى حتى ولو كان

الحمل ثقيلا هوناً ما . وسوف أجعل ثقباً فى القاع ليتناول سيدى غذاءه من خلاله .

— افعل ما بدا لك . وإما خذنى إلى هناك .

وبعد مضى ساعة كانت عربة موسوقة بالآجر يجرها فرسان عجفاوان تغادر قبيلة أومان . وقد ركب على ظهر إحداها يانكل الطويل ، وجدائل شعره الطويل تتموج مسترسلة من تحت لباس رأسه اليهودى وهو يخضخض على فرسه .

الفصل الحادى عشر

وفى الوقت الذى كانت تقع فيه هذه الأحداث ، لم يكن قد ظهر بعد موظفو إدارة الجمارك أو داوريات الحراسة على الحدود التى تثير الرعب فى نفوس المهربين المغامرين . ولذلك كان فى ميسور أى فرد أن يحمل ما شاء عبر الحدود . وإذا حدث أن جرى تفتيش أو بحث يكون ذلك من أجل مزاج صاحبه سيما إذا كانت العربة مشتملة على أى شىء يثير العيون وخاصة إذا كانت يده ذات أثر وقوة . أما القرميد والآجر فلم يكن يغر أحداً واقتيدت العربة دون عائق خلال البوابات الرئيسية للمدينة ومن داخل قفصه الضيق ، أتيح لبولبا أن يسمع ضوضاء الطريق وصياح السائقين . وكان يانكل يخضخض على جواده القصير المعفر ، وحرص يانكل أن يضلل أثره وحاد إلى درب ضيق مظلم يطلقون عليه اسم « الشارع القذر » أو « شارع اليهود » . وذلك بسبب أنه يكاد يضم سائر يهود وارسو .

وكان هذا الشارع كبير الشبه بساحة خلفية وقد برز منها ركن خطأ . وبدا كأن الشمس لا تسطع عليه أبداً . وكانت المنازل الخشبية السوداء لقدمها والركائز العديدة البارزة من النوافذ تزيد الظلام حلكة .

وهنا وهناك كان يقوم بين المنازل حائط من الآجر الأحمر (القرميد) ولكن هذه أيضاً قد استحالت إلى سواد فى مواضع عدة . وقل أن أشعّ جزء من الحائط بالإشعاع الأبيض الأخاذ المنعكس من أشعة الشمس .

لقد كان كل شيء تشمئز منه العين : المداخن . الخرق البالية . القمامة والمواعين والقدور الملقاة . فإن الناس جميعاً كانوا يلقون فى الشارع كل ما لا فائدة فيه . وربما يلقون من كل أنواع القاذورات يسيئون بها إلى الحواس الخمس لكل عابر . وكان الرجل الراكب على ظهر جواده يكاد يلمس بيديه ركائز الخشب الممدودة من بيت لآخر عبر الطريق . والتى كان يعلق عليها الجوارب والسراويل القصيرة أو الأذرة المدخنة . وأحياناً كنت ترى وراءها وجهاً نحيفاً لحسناء يهودية متزينة بعقد منظوم ينظر من خلال نافذة عتيقة .

وكان جمع من أطفال اليهود المغبرى الوجوه ، الممزقى اللباس ، المجدولى شعر رؤوسهم يصرخون ويخوضون فى الأوحال . وإذا بفتاة يهودية شقراء وجهها مُرَقّط كبيض العصفور تنظر من النافذة وفجأة تتحدث إلى يانكل بلغته غير المفهومة . واتجه يانكل إلى ميدان وكان يهودى آخر يمر بالطريق فتوقف وانضم إلى الحديث . وحينما زحف بولبا من تحت الحجارة رأى ثلاثتهم يتكلمون فى حماس ونشاط .

والتفت يانكل إليه ، وقال إن كل شيء سيتم ، وإن ابنه أوستاب فى سجن المدينة ، وإنه وإن كان من العسير إقناع الحراس ، بيد أنه يأمل أن يرتب له لقاء .

ودخل بولبا مع اليهود الثلاثة إلى إحدى الحجرات . وبدأوا يتكلمون مرة أخرى بلغتهم غير المفهومة . ونظر بولبا إلى كل منهم وقد استثاره شيء . لقد أضاءت وجهه المفتول الصارم شعلة قوية من الأمل ، نوع من الأمل الذى يعاود أحياناً رجلا — استبد به اليأس القاتل — وإذا بقلبه العجوز ينبض بقوة كقلب الشباب . وقال وفى صوته رنة من الفرح : اسمعوا أيها اليهود . أنتم تقدرون على كل شيء ، حتى أن يحفروا قاع البحر وقديماً سار المثل القائل يستطيع اليهودى أن يسرق ذات نفسه إذا شاء . أطلقوا سراح ابنى أوستاب ! عاونوه وانقذوه من أيدى الشيطان . لقد وعدت هذا الرجل اثنى عشر ألف دينار . سأضيف إليها اثنى عشر ألف دينار أخرى . بل سأعطيكم كل قداحى الثمينة ، وكل الذهب المخبوء ، وداري ، وآخر لباس لدىّ . وأعقد معكم عهداً أبد الحياة أن أشطر معكم شطرين كل ما أغنم فى الحروب . وتنهد يانكل وقال : أواه يا سيدى العزيز ، لا يمكن أن يحدث ذلك ، لا يمكن .

وأردف يهودى آخر : لا ! لا يمكن أن يكون ذلك .

ونظر اليهود الثلاثة إلى بعضهم البعض !

وقال الثالث وهو يرمق زميليه بعين مرتعشة : « وإذا حاولنا ؟ فمن الله ننشد العون »

وبدأ اليهود الثلاثة حديثهم باللغة الألمانية ، ومهما يكن من إرهاف حس بولبا فإنه لم يفهم شيئاً منه . ولم يتجاوز كل ما سمعه كلمة ترددت كثيراً « ماردوهاى » .

وقال يانكل : اسمع يا سيدى . ينبغى لنا أن نستشير رجلا لم نجد مثيلا له فى العالم . أواه ! أواه ! إنه رجل فى مثل حكمة سليمان وعندما يقول إنه لا يستطيع شيئاً فلن يوجد إنسان فى الأرض يستطيع ذلك الشىء . إجلس هنا . وها هو المفتاح . ولا تدع أحداً يدخل .

وخرج اليهود إلى الطريق . وأوصد تاراس الباب ونظر من خلال النافذة الصغيرة إلى الشارع اليهودى القذر ، ووقف اليهود الثلاثة فى عرض الطريق وبدأوا يتكلمون فى حماس ، وسرعان ما انضم إليهم رابع وأخيراً خامس . وسمعهم مرة أخرى يرددون كلمة ماردوهاى — ماردوهاى ! وظل اليهود ينظرون صوب أحد طرفى الشارع ريثما ظهر من وراء بيت متداع منزو قدم تسير فى حذاء يهودى وزىّ ومعطف يهودى .

وصاح اليهود جميعاً بصوت واحد يا ماردوهاى ! يا ماردوهاى !

وانضم إلى الجماعة القلقة يهودى نحيل أقصر من يانكل ولكنه أشد منه تجاعيداً وشفته العليا غليظة .

وسارع اليهود فى تنافس ظاهر ينبئونه بنبأهم بينما تلفت ماردوهاى عدة مرات إلى نافذة صغيرة واستنتج تاراس من ذلك أنهم كانوا يتحدثون عنه . ولوّح ماردوهاى بيده وأصغى إلى حديثهم ثم بدأ يقاطعه وكثيراً ما كان ينتمى ناحية ويبصق . وشمر إزاره ودسّ يده فى جيبه وأخرج منه بعض الحلى . وأخذ يعرض سراويله المضحكة . وأخيراً ملأ اليهود الدنيا صياحاً حتى أن اليهودى الذى كان واقفاً للحراسة اضطر أن يشير إليهم ليصمتوا وبدأ تاراس يتوجس خيفة على نفسه ولكن نفسه اطمأنت حينما تذكر أن اليهود لا يتكلمون قط إلا فى الطريق وأن الشيطان نفسه لا يفهم كلامهم . وبعد دقيقة أو اثنتين دخل اليهود سوياً إلى الغرفة ، وقصد ماردوهاى إلى بولبا . وربت على كتفه قائلا : « حينما نعتزم أمراً فإننا نفعل ما نريد بطريقتنا » .

ونظر تاراس إلى سليمان عصره الذى لم ير العالم له نظيراً ، وامتلأ بأمل متجدد . وحقاً إن ظهور اليهودى قد بث فى نفسه قدراً كبيراً من الثقة . وكانت شفته العليا ضخمة هائلة وازدادت غلظة دون ريب بأسباب خارجة عن إرادته فى حين كانت لحية سليمان هذا لا تتجاوز اثنتى عشرة شعرة على الجانب الأيسر فقط ! وقد حمل وجه سليمان هذا كثيراً من آثار الضربات التى أحدثتها أعمال البسالة وأغلب الظن أنه مع الوقت نسى عدها واعتبرها من العلامات المميزة له منذ ولادته .

وبارح المجلس ماردوهاى ورفاقه الذين دهشوا بحكمته وبراعته . وظل بولبا وحيداً . لقد كان فى مركز عجيب لم يسبق له نظير ، وكان القلق يملأ نفسه بشكل لم يعهده من قبل . كان فى قلبه حمّى ، لم يعد هو بولبا الذى كان بالأمس لا ينحنى ولا يهتز ولا ينثنى ، قوياً كشجرة البلوط . لقد غدا هيابا وجلا وأصبح واهن القوى ، يفزع لأى صوت ومن خيال أىّ يهودى يظهر فى نهاية الطريق .

وعلى هذه الحال أمضى سحابة يومه لم ينم ولم يشرب ، ولم تبرح عيناه النافذة الصغيرة . وأخيراً عند ما أسدل الليل ستوره ، ظهر ماردوهاى ويانكل . وتوقف قلب بولبا عن النبض ! ! وسألهم فى ضجر الخيل البرية : ماذا ؟ ؟ هل كل شىء على ما يرام ؟

وقبل أن يجمع اليهود شتات شجاعتهم ليردوا عليه ، لاحظ أن ماردوهاى لم يعد يحمل جدائل شعره المضفر تحت قلنسوته رغم قبح هذه الجدائل ، ووضح أنه يريد أن يقول شيئاً ، ولكنه بدلا من ذلك انفجر يتمتم كلاماً غير مفهوم حتى أن تاراس لم يفهم منه كلمة واحدة . وظل يانكل ضاماً يديه إلى فمه كما لو كان مصاباً ببرد .

وقال يانكل : « يا سيدى العزيز ! لا يمكن أن يكون الآن ! أقسم بالله لا يمكن أن يكون . إنهم قوم سوء يستحقون البصق فى وجوههم . سيقول لك ماردوهاى نفس الكلام . لقد فعل ماردوهاى ما لا يقدر أن يفعله أحد غيره ، ولكن الله

لم يشأ أن نوفق إلى ما نريد . إن ثلاثة آلاف من الجن يرابطون هنا . وفى غد سيعدم الأسرى جميعاً .

ونظر تاراس فى عيون اليهود ، نظرة لم تعد نظرة الضجر والملل أو الغضب .

واسترسل يانكل قائلا : وإذا أراد سيدى رؤيته فلا بد أن يتم ذلك غداً مبكراً ، حتى ولو كان قبل شروق الشمس . والحراس موافقون وقد أعطى أحد رؤسائهم وعده بذلك . ولكنهم لا أراهم الله السعادة فى الآخرة . يا ويلى ، يا لهم من قوم جشعين ، أكثر جشعاً من أى واحد منا ، لقد أعطيت خمسين ديناراً لكل ولرئيس الحراس .

وتكلم تاراس بعزم أكيد وقلب قوى كالحديد : حسناً . خذنى إليه . ووافق على اقتراح يانكل أن يتخفى فى زى كونت (أمير) أجنبى قدم تواً من ألمانيا ، وأعد اليهودى البعيد النظر لباساً مناسباً لأجل هذا الغرض .

وكان الليل قد أرخى سدوله ، وإذا برب البيت اليهودى ذى الشعر الأحمر والوجه المملوء بالنمش يسحب مرتبة رفيعة مغطاة بالحصير ويفرشها لبولبا على مقعد خشبى .

واضطجع يانكل على الأرض على مرتبة أخرى من نفس النوع ، وشرب اليهودى صاحب المنزل ذو الشعر الأحمر كأساً صغيرة مزج شرابها بنقيع بعض الخضروات وخلع معطفه ونظر

إلى حذائه وجواربه كما تنظر صغار الدجاج وآوى مع زوجته اليهودية إلى مكان فى شكل الوعاب .

ورقد طفلان يهوديان على أرضية الغرفة بجوار ذلك الوعاب . أشبه بجروين صغيرين مستأنسين .

ولكن تاراس لم يغمض جفنه ، وظل جالساً لا حراك به يدق بأنامله على المائدة وغليونه فى فمه ينفخ منه الدخان ، فكان يانكل يعطس أثناء نومه ، ويجر بطانيته فوق أنفه .

وما كادت أول خيوط الفجر الباهتة تلمع فى السماء حتى ركل تاراس يانكل بقدمه وقال : استيقظ ، واعطنى لباس الكونت .

وارتدى الزى فى لحظة ، وسود شاربه وحاجبيه ووضع قلنسوة سوداء على رأسه ، ولم يعد حتى أحسن عارفيه من القوزاق يستطيعون كشفه ، وغدا كأنه فى الخامسة والثلاثين من عمره قد تدفقت الصحة على وجنته وأسبغت عليه آثار جروحه مظهر الرجل العاتى الآمر ، وناسبه تماما الزى الموشى بالذهب .

وكانت الدروب والطرقات ما تزال نائمة ساكنة ، ولم يظهر بعد فى المدينة تاجر واحد يحمل سلته فى يده . ووصل بولبا ويانكل إلى بناء نمشيد بدا كأنه طير اللقلق . كان بناء واطئاً ضخماً ، حالك اللون ، ارتفع من أحد جوانبه برج طويل كأنه عنق اللقلق وعلى قمته بدا جزء من السطح ، وكان هذا البناء يفى بجملة أغراض . ففيها كانت ثكنات وسجن بل ومحكمة جنايات

أيضاً . ودخل السفر بوابة وألقوا أنفسهم فى بهو فسيح أو ساحة مغطاة وكان يرقد فيها زهاء ألف رجل . وقبالتهم تماماً باب منخفض ، وأمامه جلس حارسان يلعبان لعبة تتلخص فى أن يضرب أحدهما راحة الآخر بإصبعين اثنين فقط . ولم يعيروا القادمين أى التفات ، وأداروا وجوههم فقط حينما قال يانكل : « ها نحن ... أتسمعون يا سادة ... ها نحن » .

وأجابه واحد منهم : « أدخل » . وفتح الباب بإحدى يديه ومد الأخرى لزميله مكملا لعبتهما .

وانحدروا إلى درب ضيق مظلم ، وأوصلهم إلى بهو كالأول ، تطل عليه نوافذ . ورأى تاراس عدداً كبيراً من الجند مدججين بالسلاح . وارتفعت أصوات عدة : من الذى يسير هناك ؟ إن لدينا أوامر بمنع الجميع من المرور .

ونادى يانكل : هو نحن ، أقسم بالسموات أنه نحن أيها السادة النبلاء .

ولكن أحداً لم يصغ إليه ، ومن حسن الحظ أن رجلا مفتول العضل حضر فى تلك اللحظة وكان يبدو أنه قائدهم إذ ارتفع صوته بالسب بأعلى مما كان يرتفع به صوت الآخرين .

— يا سيدى هو نحن . وأنت تعرفنا . وسوف يشكر لك سيادة الكونت سوف يشكر لكم مرة أخرى .

— دعوهم يمرون ، هؤلاء الأبالسة ، ولا تأذنوا لأحد آخر .

ولا تخلعوا عنكم أسيافكم وارقدوا كالكلاب على الأرض .

ولم يسمع خاتمة هذا الخطاب البليغ الرحالة الكونت واليهودى .

ودأب يانكل يقول لكل من يقابله : « هو نحن — هو أنا — إننا أصدقاء » ولما بلغوا أخيراً نهاية الدرب سأل أحد الحراس : هل يؤذن لنا بالدخول الآن ؟ » .

— نعم ، ولكنى لست أدرى إن كانوا سيأذنون لكم بزيارة السجن نفسه . فإن جان لم يعد هناك وقد حلّ آخر محله .

وتمتم اليهودى بصوت رفيق : أوه . أوه . إن الأمر يبدو غير سارّ ياسيدى العزيز .

وأجاب تاراس فى عناد : تقدم . وأطاع اليهودى .

وعند باب السجن المبنى على شكل قوس مدبب وقف جندى بشاربه الكثيف المكوّن من ثلاثة أدوار . الدور الأعلى نحو الخلف والدور الثانى نحو الأمام والدور الثالث نحو الجنوب مما جعل شكله كالسنور (القط الكبير) .

وحنى اليهودى ظهره ما استطاع وتحول عنه قائلا :

— ياصاحب المعالى . ياسيدى اللورد العظيم .

— أتخاطبنى أيها اليهودى ؟

— نعم أخاطبك ياسيدى اللورد العظيم .

— اسكت . ما أنا إلا جنديا عادياً .

قال ذلك العسكرى ذو الشارب المثلث الأدوار وقد لمعت عيناه بالبهجة والانشراح .

وهز اليهودى رأسه ومد أصابعه وقال : أقسم بالله لقد ظننته الحاكم العام نفسه ، إنه يبدو رجلا عظيما . أقسم بالسموات أنه أشبه بقائد فى رتبة الكولونيلى . قيد شعرة وسوف يكون كولونيلا . إن سيدى ينبغى أن يركب جواداً سريع العدو كأنه الطير وأن يقود فرقة من الجيش .

ولمس الجندى الدور الأعلى من شواربه وكانت عيناه تلمعان ببريق السرور والانشراح أكثر من ذى قبل .

واستمر اليهودى قائلا : ما أرق فريق العسكريين ! آه يا إلهى . ما أطيبهم ! الضفائر وحلى السرج . . إنها تضىء كالشمس . والعذارى أينما وقع بصرهم على العسكريين ... آه !!! وهز اليهودى رأسه مرة أخرى .

وبرم الجندى الطبقة العليا من شاربه وتمتم بصوت خرج من بين أسنانه كصهيل الخيل وخاطبه اليهودى :

أتوسل إلى سيدى أن يسدى إلينا صنعاً . ها هنا أمير قدم من بلد أجنبى يريد أن يشهد القوزاق . إنه لم يشهدهم فى حياته ولا يعلم أى صنف من الرجال هم .

ولم تكن الألقاب شيئاً غير مألوف فى بولندا ، كان غالباً ما يجذبهم الشوق إلى رؤية هذا الجزء من أوربا النصف أسيوى .

وكانوا يعتبرون المسكوف وأوكرانيا بمثابة جزء من آسيا . ولهذا انحنى الجندى ورأى من الذوق السليم أن ينطق ببضع كلمات من تلقاء نفسه فقال : إنى لا أعرف معاليكم . ولماذا تحرص على مشاهدتهم ، إنهم كلاب وليسوا رجالا ، وعقيدتهم مما لا يحترمها بشر .

وأجاب بولبا : أنت تكذب يا ابن الشيطان . أنت نفسك كلب أثيم . كيف تجرؤ وتتفوه بأن عقيدتنا ليست محترمة . إنما عقيدتكم أنتم هى غير المحترمة .

وتكلم الجندى : ها ! أنا أعرف من أنت يا سدبق . أنت نفسك واحد من هؤلاء الذين أحرمهم هنا ، انتظر حتى أدعو رجالنا هنا .

وعرف بولبا أنه أخطأ ، لكن عناده وثورة غضبه حالا دون محاولة إصلاح هذا الخطأ ، وتدخل يانكل لحسن الحظ لإنقاذ الموقف :

— يا سيدى العظيم ! كيف يمكن أن يكون أميراً واحد من القوزاق ؟ ولو كان قوزاقيا فمن أين له بهذا الزى وسحنة الكونت .

— كفى كذباً الآن ! !

وفتح الجندى فمه الواسع لينادى ، وصاح يانكل :

— يا صاحب الجلالة ! على رسلك ! ! على رسلك ! ! إننا سنجزل لك العطاء بما لم يحدث لأحد من قبل . سنعطيك قطعتين من العملة الذهبية .

— ها ها ! ! قطعتان ذهبيتان . لا شيء بالنسبة لى . إنى أنقد الحلاق قطعتين من الذهب أجراً لحلاقة نصف ذقنى . اعطنى أيها اليهودى مائة قطعة .

وهنا فتل الجندى شاربه العلوى وقال : وإذا لم تعطنى ذلك فوراً فسأصرخ .

وتأوه اليهودى أسى وحسرة وامتقع وجهه وقال : « لماذا يجب أن يحصل على هذا الكثير ؟ »

وفض كيسه الجلدى . وسره أن لم يكن به سوى ذلك وأن الجندى لم يطلب أكثر من مائة قطعة .

وأردف يانكل : ياسيدى . دعنا ندخل فوراً . إنك ترى أى رجال سيئى الخلق ها هنا ! !

وكان قد لحظ أن الجندى يقلب العملة فى يده وعلى وجهه سيماء الندم لأنه لم يطلب مزيداً .

وقال بولبا : « كيف ذلك ؟ أنت أيها الشيطان . أنت أخذت النقود ثم لا ترينا القوزاق . كلا ! ينبغى أن ترينا إياهم . إنه لا ينبغى أن ترفض الآن وقد أخذت النقود » .

— إذهب . إذهب إلى الشيطان . فإن لم تفعل فسأنادى بأعلى صوتى هذه الدقيقة . وأنت ؟ — قلت لك اغرب عنى !

وصاح يانكل المسكين : ياسيدى . باسم السموات العلا . لنرحل لعنة الله عليهم . أدعو الله أن تنتابهم الهواجس فيبصقون من الفزع . وانثنى بولبا فى بطء عائداً ، ورأسه منكس . ويانكل يتبعه . موجها إليه أشد اللوم فقد غدا اليهودى خالى الوفاض صفر اليدين بعد أن ضيّع هذه الدنانير هباء .

— ولماذا لا تثب عليه ؟ لماذا لا تدعه يصخب ؟ إنهم أقوام لا يعيشون إلا بالصخب . الويل لى . أى حظ ساقه الله إلى هؤلاء القوم . مائة دينار لكى يطردونا . وهم يمزقون جدائل شعورنا وراء شحمة الأذن ، ويسيطرون علينا حتى لا نستطيع النطق .. بل النظر إليهم . لا أحد يعطينا نحن مائة دينار . أوه يا إلهى ! يا إلهى الرحيم ! !

وقد ترك الفشل والغيبة أثرا عميقاً فى نفس بولبا وبدت النار المتأججة فى عينيه . وفجأة قال « فلنذهب » . كما لو كان قد استيقظ من نوم . « لنذهب إلى الميدان . أريد أن أرى كيف سيعذبونه ! !

— آه ياسيدى . لماذا تريد أن تذهب ؟ إنك لا تستطيع أن تأخذ بيده أو تساعده الآن .

وأجاب بولبا فى عناد : « سنذهب » .

وتهد اليهودى — كما تفعل الممرضة فى المستشفى — وأخذ يجرّ نفسه جراً خلفه . ولم يكن عسيراً معرفة الميدان الذى سيحدث فيه تنفيذ الإعدام . وتزاحم الناس هنالك من كل صوب وقد اجتمعوا من جميع الأنحاء .

وكان هذا المشهد فى ذلك العصر المضطرب بالقتال يجتذب إليه الناس عامتهم وخاصتهم ، ها هنا جمهور كبير من خيرة النساء العجائز المتدينات ، وجمهور آخر من أشد العذارى والنسوة جبناً واللاتى كنّ لا يحلمن أناء الليل بعد هذا المنظر إلا بالجثث الملطخة بالدماء فيصرخن فى نومهن بأعلى أصواتهن كما يفعل أى منّ الفرسان السكارى ، ولا يدعن فرصة تضيع عليهن فى إشباع رغبتهن فى المشاهدة ، كانت الكثيرات يصرخن فى حمى جنونية وهن مغمضات الأجفان مدبرات « باللعذاب » ولكنهن مع ذلك كن يحتملن المشهد حتى النهاية ، وبعضهن وهن فاغرات الأفواه وباسطات الأيدى يتمنين لو تثبن على رؤوس الصفوف الأمامية لاجتلاء المنظر ! !

وكان يرى وسط الجموع المكونة من الرؤوس العادية الضيقة الصغيرة وجه قصاب بدين يرقب العملية فى سيماء الخبير العليم ويتحدث إلى أحد المحاربين ، وكان يناديه بأخيه فى الرضاعة ، لأنهما كانا يشربان الخمر فى حانة واحدة أثناء العطلات !

وكان البعض يشرح ويعلق على كل ما يراه وكان آخرون

يتراهنون ولكن أغلب الناس كانوا كسائر الخلق ، يشهدون موكب الحياة وما يحدث على الأرض فى بلاهة وهم يحكون أنوفهم . وفى صدر المكان ، وإلى جوار حرس المدينة الكثيفى الشوارب ، وقف شاب نبيل ، أو قل إنسان بدا فى ثوب النبالة ، يرتدى حلة عسكرية وضح أنه قد لا يملك سواها ، وكان قميصه ممزقاً وحذاؤه القديم فى قدميه ، وكانت هناك سلسلتان واحدة فوق الأخرى معلقة إلى عنقه ترتكز إلى شىء أشبه بالدينار . ووقف هو بجوار حبيبته إيزيفا يختلس النظر فى كل لحظة ليطمئن إلى أن أحداً لم يلطخ هندامها الحريرى . وكان يشرح لها كل شىء فى تفصيل دقيق ، لا يدع مزيداً لمستزيد . ثم قال لها : كل هؤلاء القوم الذين ترينهم ، يا عزيزتى إيزيفا ، قد أتوا ليروا إعدام المجرمين . وذلك الرجل الذى ترينه يا عزيزتى يحمل فأساً وأدوات أخرى فى يديه هو الجلاد . وسوف يعذبهم وينفذ فيهم حكم الإعدام . وعندما يهشم أحدهم من فوق الترس ويعذبه بطرق شتى يكون المجرم ما يزال حياً ، ولكن عندما يفصل الرأس عن الجسد يا عزيزتى فإنه يموت فوراً : أما قبل ذلك فإنه يولول ويصرخ ويركل الأرض بقدميه ، وما أن تجز رأسه حتى لا يعود يولول أو يشرب أو يأكل ويصبح يا عزيزتى جسداً بلا رأس !

واستمعت إيزيفا فى فزع وعجب . وكانت أسطح المنازل مزدحمة بالقوم . ونظرت من خلال النوافذ وجوه غريبة ذات

شوارب ، تغطى وجوههم أغطية أشبه بالقبعات . وفوق الشرفات المظللة جلست الخاصة من الطبقة الأرستقراطية .

وكانت سيدة ضحوك السنّ ، رشيقة اليد ، ناصعة كالسكر الأبيض تستند إلى سياج حديدى . وكان جماعة النبلاء اللامعين — وكانوا سادة أشداء — يطلون فى مظهر من الوقار . وكان أحد الحشم فى لباس وثير وأكمام مدلاّة يدور على القوم بمختلف المشهيات والمنعشات .

وكم من مرة كانت آنسة كحلاء العين ماكرة تلتقط الكعك والفاكهة بيدها الناصعة البياض ثم ترمى بها إلى الجماهير من تحت ، وكانت جموع الفرسان الجياع تمسك قبعاتهم ليلتقطوها . وكان بعض الأعيان الطوال القامة ممن تعلو رؤوسهم رؤوس الآخرين وقد ارتدوا معاطفهم الناصلة الإحمرار والموشاة جدائلهم بالذهب أول من يمسك بها بسواعدهم الطويلة ، ويقبّل غنيمته ، ويضمها إلى صدره ، ثم يدلف بها عجلا إلى فمه .

وكذلك كان يشترك فى المشهد باز فى قفص ذهبى معلق تحت إحدى الشرفات ، رأسه منزو جانباً ، وإحدى ساقيه مرفوعة فى يقظة على الجموع الحاشدة .

وسرعان ما ازداد العجيج والضجيج من كل صوب : إنهم يحضرونهم ! إنهم يحضرون القوزاق .

وتقدموا بجدائلهم الطويلة ورؤوسهم عارية ولحاهم لم تجز ،

تقدموا لا جبناً ولا كآبة تعلوان وجوههم بل علا سيماهم كبرياء صامت ، وقد تمزقت أرديتهم الثمينة . ووقفوا فى أسمال بالية .

لم يصعدوا أبصارهم ولم يحنوا رؤوسهم للجماهير . وكان فى مقدمتهم جميعاً أوستاب .

تُرى ماذا كان شعور بولبا حينما أبصر أوستاب ؟ ترى ماذا كان يعتلج فى قلبه ؟ . .

لقد تفرس فيه بين الجموع الحاشدة . لم تفته حركة واحدة منه ووقف أوستاب ، وكان عليه أن يجرع الكأس المريرة قبل زملائه الآخرين . ثم نظر إليهم ، ورفع رأسه ، وقال بصوت مسموع : منحنا الله القوة حتى لا يتاح للزنادقة الكافرين — وكثير منهم جالسون هنا — أن يسمعوا أحداً من المسيحيين وهو يتعذب ، وحتى لا ينطق أحد منا بكلمة ! !

وتقدم من المقصلة . وعندها قال بولبا بصوت رقيق : أحسنت القول . أحسنت القول . ونكس رأسه الأشيب إلى الأرض .

وخلع الجلاد ملابس أوستاب ، ومزقها خرقاً ، وألهب يديه وقدميه بعصا مصنوعة من جذوع النخيل . . .

لن نملأ نفس القارئ ألماً بتصويرنا للتعذيب الجهنمى الذى يشيب له شعر الرأس . كان ذلك مظهراً للعصور المتوحشة الجامدة التى كان يعيش فيها الإنسان فى طلب المغامرات الحربية الدامية والتى قدت قلوبهم من صخر حتى أصبحت غريبة عن الشعور

الآدمى . وعبثاً حاول بعض الناس — وكانوا قلة مستثناه فى ذلك العصر — أن يقفوا فى وجه تلك الأعمال البربرية . وعبثاً حاول الملك وعدد غير قليل من الفرسان المستنيرين أن يوضحوا أن مثل ذلك التعذيب القاسى إنما يلهب روح الانتقام فى قلوب القوزاق . ولـكن سلطان الملك ، والمشورة الصالحة ، لم تكن شيئاً مذكوراً تجاه هـذه الفوضى والإرادة المتعجرفة الصلفة لأقطاب البلاد ، الذين جعلوا من مجلس النواب سخرية الحاكمين بسبب عدم التبصر وانعدام التفـكير ، والزهو والغرور الصبيانى والتعاظم التافه .

وتحمّـل أوستاب صنوف العذاب فى مثل المهالقة الجبابرة ، لم يصرخ ولم يئن ، حتى عندما بدأوا يهشمون عظام ذراعيه وساقيه .

وعندما كان أكثر النظارة بعـداً عن المشهد يسمع صوت التهشيم البشع وسط الهدوء القاتل الذى استحوذ على الجماهير ، وعندما كانت النسوة يعرضن بأعينهن ويتولين عنه ، لم تنفرج شفتاه عن أنّـة واحدة ، ولم ينتفض فى وجهه عرق واحد .

ووقف تاراس وسط الجماهير ، منتكس الرأس ، مرفوع العين فخاراً ، مفاخراً ومرددا : أحسنت ! أحسنت يا بنىّ .

ولما أخذوا يشدونه ويدفعونه إلى عذاب الموت الأخير ، بدا كأن قواه قد أخذت فى الضعف . وتلفت بنظره الحائر حواليه .

ويا لله ؟ ! كانت كلها وجوه غريبة ينكرها ، وودّ لو أن روحا عزيزة كانت بالمـكان ، تراه وهو يقضى نحبه . لـكنه لم يكن يريد

أن تكون أما واهنة يسمع تنهداتها وحسراتها وصرخاتها المدوية أو زوجة تمزق شعرها وتلطم صدرها الأبيض . ولكنه كان يريد أن يرى وجه رجل قوى تمنحه كلماته الرزينة قوة جديدة وعزاء فى ساعة الموت .

ثم خذلته قواه وصرخ وقد برح بروحه العذاب : يا تكو ! أين أنت ؟ هل تسمعنى .

ورنّ صوت فى هذا السكون الشامل يقول : إنى أسمعك .

وارتعشت اللابين رعشة رجل واحد ...

وهرولت فرقة من الحراس الخيالة لتبحث فى الحشد ...

واستحال لون يا نكل إلى صفرة الموت . ولما مَرّ به الخيالة نظر حواليه فزعا . وقد أوجس خيفة على تاراس . ولكن تاراس لم يكن موجوداً وراءه ولم يبق له أثر .

الفصل الثاني عشر

ولكن آثار تاراس لم تنطمس . وظهر على حدود أوكرانيا جيش قوزاق مكون من مائة وعشرين ألف رجل . لم تعد هذه قوة صغيرة أو فصيلة من الجند تنقض للنهب أو لمطاردة التتر . بل كانت صفوة الأمة عن بكرة أبيها . فقد نفد صبر الشعب . لقد هبوا لينتقموا من انتهاك حقوقهم ومن الإذلال المهين للتقاليد ، ومن تدنيس معتقدات الآباء والشعائر المقدسة ، وانتهاك حرمة الكنائس ، وارتكاب الإهانات بمعرفة اللوردات الأجانب ، واستبدادهم ، والنفوذ البابوى ، والسيطرة اليهودية الشائنة فوق أرض المسيحية .

لقد فاضت روحهم به وتغذت نفوسهم به واشتدت من أجله المرارة — مرارة البغضاء والكراهية — فى نفوس القوزاق .

وتقلد رئاسة الجيش القوزاق المرسوم الرئيس أوسترانيتزا ، ورغم أنه كان غض الإهاب إلا أنه كان فتى قوى الفؤاد . ووقف إلى جانبه جونيا زميل السلاح القديم المجرب ومستشاره . وكان يقود الجيش ثمانية قواد برتبة كولونيل على رأس كل فصيلة من اثنى عشر ألفاً واحد منهم . وكان يسير وراء الزعيم واثنان من

الرؤساء وحامل العلم . وكانت أعلام وبيارق كثيرة تتمايل وراءهم من بعيد . بدت كذيول الخيل مثبتة فى الأوتاد .

وكان هناك عدد آخر كبير من الضباط من فوق المشاة والفرسان وكان يوجد فى الفرق المسئولون عن الأمتعة ، وكتاب الوثائق . وفضلا عن القوزاق المقيدين فى السجلات فقد كان هناك عدد مساو لهم من المتطوعين مشاة وركباناً .

لقد هب القوزاق من كل صوب : من شيجرين وبيرياسلاف ومن باتورين وجلوخوف ومن امتداد نهر الدنيبر الأدنى والأعلى ومن كافة الجزر .

وامتد عدد لا يحصى من الخيل والعربات عبر الحقول . وفى وسط كل هؤلاء القوزاق . فى وسط كل الفرق الثمانية . كانت هناك فرقة هى الصفوة المختارة . وتلك الفرقة هى التى كان يقودها تاراس بولبا . وكان ما يميزه عن الآخرين سنه المتقدمة ، وتجاربه ، ومهارته فى قيادة الجنود ، وخصومته اللدد للعدو

حتى القوزاق أنفسهم اعتبروه مفرطاً متجاوزاً فى غلظته وقسوته العنيفة . وكان رأسه التى كساها الشيب لا تأمر إلا بالمشانق والأوتاد ، ونصائحه فى مجالس الحرب لا تكون إلا بالفناء .

وقد نبتعد عن موضوعنا إذا أردنا أن نصف هنا جميع المعارك التى أظهر فيها القوزاق مقدرتهم . وكيف كانت الملاحم تتطور .

فسجلات ذلك فى صفحات التاريخ ، وإنهم ليعرفون حق المعرفة أى حرب تلك التى شنتها روسيا من أجل العقيدة . فليس ثمة قوة أقوى من العقيدة ... إن العقيدة لا تقهر ... كالصخرة الصلدة الشماء فى وسط البحر اللجى الهائج . لم تخلقها يد الإنسان . تحمى جدران المحيط فى أغواره ولا تنهار . تراها حيثما كنت صامدة وجهاً لوجه أمام الأمواج المابرة وويل للسفينة التى ترتطم بها ، فإن كل شىء فيها يتحطم ويتناثر ويسحق ويغرق أما الجو الفزع فإنه يقمزق من الصيحات المنبعثة من بحاريها الغرقى .

إن صفحات التاريخ تسجل تفصيلا كيف أن الحامية البولندية قد ركنت إلى الفرار من المدائن التى حررها القوزاق ، وكيف أن المرابين اليهود الجشعين قد أعدموا شنقاً وكيف أن الزعيم الملكى ميكولاج بوتوكى مع جيشه المرمرم كان عاجزاً عن عن صد هذه القوة التى لا تقهر . وكيف أنه بعد أن دحر فى المعركة وطورد ، خسر زهرة جنده فى مجرى صغير منحوس الطالع . وكيف أن فرق القوزاق المرهوبة الجانب قد حاصرته فى المدينة الصغيرة بولونوى وكيف أن هذا الزعيم البولندى وقد ضيق عليه الخناق أقسم بأغلظ الإيمان باسم مليكه ووزرائه أن يقبل جميع مطالبهم وأن يعيد إليهم كامل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة .

لكن القوزاق لم يكونوا ليخدعوا بهذا ، فقد عرفوا قيمة اليمين البولندية ولو لم يسارع كهان المدينة الروس إلى نجدة بوتوكى

لما بقى بوتوكى بعد ذلك يزهو على جواده المطهّم بستة آلاف من الدنانير . يجذب عيون العلية من النساء وحسد الفرسان ويضفى على مجلس الأمة الفخفخة والأبهة أو يولم الولائم الفخمة لأعضاء مجلس الشيوخ

فلما خرج القساوسة لاستقبالهم فى عباءات من الذهب ، حاملين أيقوناتهم الصغيرة والصلبان ويتصدرهم رئيس القساوسة بنفسه ، وفى يده صولجان الكنيسة وعلى رأسه تاجها حنى القوزاق رؤوسهم وخلعوا قبعاتهم . وما كانوا ليعلنوا أبداً مظاهر الاحترام لأى فرد ولا للملك نفسه فى تلك الساعة ، ولكنهم لم يجرؤوا على عصيان كنيستهم المسيحية فأطاعوا كهنتهم وقبل الزعيم والقواد أن يطلقوا سراح بوتوكى بعد أن أقسم لهم بأغلظ الأيمان ألا يمسّ كنائسهم المسيحية بسوء ، وأن يتناسى الماضى وألا يمتهن الشهادة القوزاقية .

لكن واحداً من القواد لم يوافق على هذا السلام ، وكان هو تاراس الذى انتزع خصلة من شعر رأسه وصاح : إيه أيها الزعيم وأيها القواد ، لا تأتوا فعل النساء . لا تثقوا بالبولنديين فسوف ينكثون ، إنهم كلاب .

وحينما طلع عليهم موثق الفرقة وعرض الشروط ووقعها الزعيم بخط يده ، خلع تاراس سيفه التركى الصقيل المزدان بنصل

من الفولاذ الدمشقى وكسره قطعتين كالبوص وقذف بهما فى اتجاهين متضادين قائلا :

وداعا ! ، فلن يتلاقى هـذان النصفان ، ولن يكونا سلاحا بعد الآن . وكذلك نحن أيها الإخوان لن تلتقى وجوهنا فى هذا العالم . تذكروا أيها الرفاق كلمات وداعى هذه .

وهنا اخشوشن صوته وارتفع صعداً يرن بقوة مجهولة لم تعرف حتى الآن ، وتولتهم رعدة وهو يتفوّه متنبئاً : فى ساعة موتكم سوف تذكرونني . أتظنون أنكم أتيتم بالسلم والطمأنينة ؟ أتظنون أنكم قد أصبحتم سادة الموقف الآن ؟ ... لا فسوف يسود عليكم الآخرون . وأنت أيها الزعيم سوف يسلخ ويفرى جلد رأسك حيا ... بل سوف يُحشى بدقيق الحنطة السوداء وسوف تعرض على المارة فى مختلف الأسواق ، ولن ينجو منكم أحد برأسه أيها السادة . ولسوف يُزَج بكم فى غياهب السجون خلف الأسوار الصخرية ذلك إن لم يوقدوا عليكم فى المراجل كالأغنام .

واستمر فى حديثه موجها الخطاب إلى رجاله : وأنتم يا أولادى لعلكم تريدون أن تموتوا ميتة طبيعية لا تولولون ولا تستصرخون على فرش النسوة أو سكارى فى الحانات أو كالجيف فى بيوت المومسات ، بل تريدون أن تموتوا ميتة فوزاقية حقّة ، كلكم فى فراش واحد ، كفراش العروس يوم الزفاف ؟ أو لعلكم تريدون

العودة إلى الأرطان والارتداد عن الأديان ورفع القساوسة البولنديين فوق ظهوركم ؟

وصاح كل من كان فى فرقة بولبا وكثير آخرون انضموا إليهم : نحن وراءك أيها القائد . نحن وراءك .

وأجاب تاراس وقد عقف قبعته على جبينه مستلقياً على ظهر جواده ناظراً شزراً إلى أولئك المتخلفين : إذا كان الأمر كذلك فاتبعونى . وادعوا الله ألا نذكر إلا بكلمة طيبة . تقدموا ياأولادى لمقابلة اليهود .

وبعد أن فرغ من ذلك ألهب جواده . وفى إثره رتل مكون من مائة عربة وكثير من القوزاق فرساناً ومشاة . وحانت منه التفاتة فنظر إلى أولئك المتخلفين بعين كانت تقدح شرراً . لم يجرؤ أحد أن يثنيه أو يقف فى وجهه ورحلت الفرقة على مرأى من الجيش كله . وطالما كان تاراس ينظر وراءه ويحدق البصر .

ولبث الزعيم والقواد فترة طويلة مطرق الرءوس ، مفكرين فى أمرهم ، سكوتاً كأنما قد أثقلت قلوبهم بأشأم الأنباء .

ولم تكن تنبؤات تاراس عبثاً ، فقد وقعت الأحداث وفق نبوءته ، وسرعان ما حنث البولنديون فى مدينة كانيف ، وقطعوا رأس زعيم القوزاق وكثيرين من كبار ضباطه ، وعلقت على الأوتاد .

أما تاراس فقد توغل داخل بولندا بفرقته وأحرق ثمانى عشرة مدينة ، وأربعين كنيسة بابوية ، وبلغ مشارف مدينة كراكو

نفسها ، وقتل كثيراً من النبلاء ، ونهب وسلب عدداً من أعظم القصور الغنية بالرياش ، وأسال رجاله القوزاق النبيذ والمسل المخمر على الأرض وكان يخزنه البولنديون بعناية فى أقبية عظيمة ، وقطعوا وحرقوا أثمن الرياش والملابس وكل شيء وجدوه فى المستودعات .

وكان كل ما قاله تاراس : لا تدعوا من الكافرين ديارا . فلم يبد القوزاق رحمة نحو السيدات ذات الجفون الكحلاء والعذارى ذوات الوجوه الناصعة البياض والصدور الناهدة . بل لم ينفعهن احتماؤهن بالكنائس . لقد أحرقهم تاراس جميعاً بل وحرق الكنائس وكل شيء . كم من يد بيضاء ناصعة ارتفعت إلى السماء وسط النيران المتأججة تطلب الرحمة فى صوت أليم يحرك الصخر وتأسى له وتتحسر حشائش السهل .

لكن القوزاق الغلاظ القلوب لم يأبهوا بشيء . كانوا يرفعون الأطفال على أسنة الرماح فى الطرقات ويلقون بهم فى النيران . وكان كل ما قاله تاراس : أيها البولنديون الكفرة . هذا هو الاحتفال بمأتم أوستاب . ولقد أقام فى كل القرى والمدائن مثل تلك المآتم احتفالا بذكرى أوستاب حتى وجدت الحكومة البولندية أن أفعاله قد تجاوزت حدود غارات اللصوص والنهب والسلب فأمرت الحكومة بوتوكى بالذات أن يقبض على تاراس فوراً وأمدته بخمس فرق من جيشها . وأفلح القوزاق فى الإفلات من المطاردين ستة أيام سويًّا ، فرّوا عبر الدروب الريفية وبدأت

خيولهم تترنح تحت وطأة المطاردة العنيفة غير المألوفة ، وكادوا ينجحون فى الإفلات ، إلا أن بوتوكى كان حقاً جديراً بالمهمة التى وكلت إليه إذ ظلّ يطاردهم فى غير كلل أو ملل حتى أدركهم على ضفاف الدنيستر حيث كان تاراس يعسكر فى غابة مهجورة مقفرة طلباً للراحة .

وعلى حافة جرف فوق نهر الدنيستر كانت تطالعهم الأسوار والحصون المتداعية ، والحصى والقرميد المتحطم يكسو قمة الصخر ، كأنها توشك أن تنهار وتهوى فى أية لحظة . أحاط الزعيم بوتوكى ببولبا . وظل القوزاق يقاتلون أربعة أيام يصدون البولنديين بالآجر والأحجار . لكنّ قواهم خارت فى النهاية كما نفدت مئونتهم وصمم تاراس أن يأخذ طريقه وسط الأعداء . وكاد القوزاق يفلحون فى شق طريقهم تسعفهم جيادهم السريعة لولا أن توقف تاراس فجأة فى وطيس المعمعة وصاح :

« انتظروا لقد سقط منى غليونى ، ولن أدع البولنديين الكفار يأخذون حتى غليونى وتبغى » .

وانحنى الزعيم العجوز يبحث بين الحشائش عن غليونه ، أنيسه فى البر والبحر وفى المعارك الوطنية . وفى تلك اللحظة انقض عليه ثلة من الجنود . أمسكوه من ساعديه المفتولتين ، وحاول أن يتخلص منهم لكن الجنود لم يتساقطوا من حوله كما كان يحدث

قديما . وتنهد الرجل العجوز وقال : واحسرتاه على المشيب ! وبكى . . .

لكنها لم تكن الشيخوخة إنما كانت مقاومة رجل واحد لقوى رجال عديدين . كانوا يقاربون الثلاثين وقد تعلقوا بذراعيه ورجليه .

ونادى البولنديون : لقد أمسكنا بالطائر . الآن ينبغى لنا أن نفكر فى جزاء هذا الكلب . وبعد أن استأذنوا زعيمهم اعتزموا أن يحرقوه حياً على مشهد من الناس جميعاً . وكان على مقربة منهم جذع شجرة تقصفت فروعها من الشهب الساقطة ، فأوثقوه بالسلاسل الحديدية وشدوه إلى الجذع . ودقوا مسامير الحديد وصلبوه ورفعوه عالياً ليمكن أن يرى من بعيد . وجمعوا أكوام الحطب من تحته ، لكن تاراس لم يلق بنظرة إليهم ، ولم يفكر فى النيران التى توشك أن تحرقه بلهيبها . لقد أخذ الرجل المسكين يرنو بعينيه إلى القوزاق الذين كانوا يجيبون بالنيران على مطارديهم ، وكان يراهم من مكانه بوضوح كما لو كانوا واقفين على راحة يديه .

ونادى بأعلى صوته : أسرعوا يا أبنائى لتبلغوا التل هناك ، ذلك التل الذى يقع وراء الغابة . فإنهم لن يغلبوكم على أمركم هناك .

لكن الريح لم تحمل كلماته إليهم ، وتمتم هو فى يأس وقنوط وهو يلقى بنظره إلى نهر دينستر المتلألئ : لقد هلكوا ! نعم هلكوا ! وذلك كله من أجل سبب تافه .

ولمع وميض الفرح فى عينيه ، فقد رأى أربعة قوارب تبرز من خلف غابة كثيفة ، واستجمع كل قواه وملأ رئتيه ونادى بأعلى صوته : اتجهوا إلى شاطئ النهر يا أولادى . اسلكوا طريقكم تحت التل عن يسار ، فهناك قوارب قرب الشاطئ . إركبوها وإلا طاردوكم .

وفى هذه المرة هبت الريح من الجانب الآخر فحملت كلامه والتقطه القوزاق ، ولكن نصيحته كلفته ضربة على أم رأسه بظهر فأس ، ودارت الدنيا فى عينيه . وركضت جموع القوزاق تحت الممر الصخرى المحاذى للشاطئ ، ولكن مطارديهم كانوا يسرعون فى أعقابهم ، وقد أوشكوا على اللحاق بهم ، ورأوا الطريق ينثنى ويتعرج ويعوق هرب القوزاق وقالوا من هنا نسير أيها الرفاق . وقفزت بهم خيولهم التترية من على الأرض وارتفعت فى الجو أشبه بالثعابين . ونزلت إلى اليم الدنيستر ، ولم يفشل فى الوصول إلى النهر سوى فارسين ارتطما بالصخور وهلكا بجيادهما . لم ينبثا بكلمة واحدة . وسبح القوزاق بخيولهم ووصلوا إلى القوارب وفكوا رباطها . ووقف البولنديون على حافة الهوة وقد تولاهم الدهش من أعمال الشجاعة التى أتاها القوزاق والتى لم يسمع بها من قبل . ووقفوا مترددين : هل يلقون بأنفسهم وراءهم أم لا ؟

وكان هناك ساعتئذ أحد القواد الشبان المتحمسين ، وهو

شقيق الحسناء البولندية التى فتنت أندريا المسكين . إنه لم يقف ملياً ولم يفكر سوياً وإنما اندفع بجواده فى قوة وعزم وراء القوزاق فاصطدم بالصخور ومزقته الأحجار المدببة شر ممزق . لقد هلك فى الهوة الساحقة وتناثر لحمه مخلوطاً بالدم فى الغابة التى نمت وتكاثرت ضفاف الهوة .

وعندما أفاق تاراس من الضربة نظر إلى نهر دنيستر ورأى القوزاق فى قواربهم يمخرون عباب اليم بعيداً ، وكانت قذائف النيران تنهمر عليهم ولكنها كانت تسقط دونهم . وأشعت عينا الزعيم العجوز ببريق الفرح وناداهم من أعلى :

وداعاً أيها الرفاق . تذكرونى وأتوا إلى هنا مرة أخرى فى الربيع المقبل من أجل غزوة باسله مجيدة . كيف حالكم الآن أيها البولنديون الكفار . أتظنون أن شيئاً فى العالم كله يمكن أن يخيف أو يفزع واحداً من القوزاق ؟ انتظروا فما قريب يأتى اليوم الذى تعلمون فيه أى فتية هم الروس الأرثودكس ! إن الشعوب قاصيها ودانيها تتحدث وتتنبأ بأمرهم . سيخرج من التربة الروسية حاكم ولن تكون على الأرض قوة إلا أقبلت عليه مذعنة صاغرة .

وتصاعد اللهب من أكداس الحطب . ولكن بربك أى نار وأى عذاب وأى قوة فى الأرض يمكن أن تغلب القوة الروسية ؟!

إن نهر دنيستر ليس رافداً صغيراً ، وإن مياهه وأدغاله

الكثيفة وغيضانه وخلجانه العميقة وسطحه المتلألئ كالمرآة ، ومن فوقه ترن أصوات البجع ، وينساب بط النهر المزهو بنفسه وكثير من الطير تختفى فى غابة بوصية وعلى طول ضفافه .

وظل القوزاق يجدفون سراعاً تباعاً ، فى قواربهم الصغيرة ذات الدفة المزدوجة متباعدين ومتحاشين البقاع القريبة الضحلة مفزعين الطير من مراقدها .

لقد ظلوا يجدفون ويجدفون ... وفى أثناء ذلك لم يكفوا عن الحديث عن الزعيم ... وبطولة الزعيم !

ألوان وأرقام مجموعة الألف كتاب

لكل كتاب رقمان : الأول الرقم العام ويدل على رقم الكتاب فى السلسلة وهو مكتوب على الصحائف الأولى وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف .

والثانى : الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

والمجموعة كلها مقسمة إلى أربعة موضوعات رئيسية لكل منها لون خاص :

١ — الأدب (أخضر) ويشمل : الأدب العام ، تاريخ الأدب ، النقد ، الشعر ، القصص

٢ — العلوم (أزرق) وتشمل : الزراعة ، الصناعة ، الطب ، الكيمياء ، الفلك ، الحيوان ، الرياضيات

٣ — العلوم الإنسانية (أحمر) وتشمل : الاجتماع ، الاقتصاد ، التربية ، علم النفس ، التاريخ والتراجم ، الجغرافيا ، الرحلات ، الدين ، السياسة ، الفلسفة ، القانون ، المعارف العامة

٤ — الفنون (بنى) وتشمل : الإذاعة ، التصوير ، الرسم ، المسرح ، الموسيقى ، الرياضة البدنية

صدر من كتب العلوم الإنسانية

فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا
رحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

---

١ — تفسير القرآن
٢ — حضارة الإسلام تأليف جوستاف جرونيباوم
٣ — الفكر الخوالد تأليف مولاى محمد على
٤ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة تأليف أميل برهييه
٥ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم تأليف
ريجنالد موريش
٦ — سكتلنديارد تأليف سير هارولد سكوت
٧ — الحياة العامة اليونانية تأليف . ا . ا زمرن
٨ — فلسفة الخير تأليف لويس دكنسن
٩ — رجال ذللوا الصحراء تأليف رتشى كولدر
١٠ — حركات الشباب للصاغ الدكتور محمد فتحى
١١ — بلاد ما بين النهرين تأليف . ل . ديلابورت

١٢ — بسمرك تأليف لدفيج
١٣ — آثار حضارة الفراعنة تأليف محرم كمال
١٤ — الحياة الناجحة تأليف أوستاس تشسر
١٥ — كيف تقرأ الجريدة تأليف ادجار ديل
١٦ — الحياة اليومية فى مصر القديمة تأليف ألن شورتر
١٧ — الديانات فى أفريقيا السوداء تأليف هـ . ديشان
١٨ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة تأليف أرنولد جزل
١٩ — علم نفسك الاقتصاد تأليف س . ايفلين توماس
٢٠ — تاريخ الملاحة تأليف ا . تومازى
٢١ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠ تأليف دافيد تومسون
٢٢ — التاريخ الجغرافى للقرآن تأليف السيد مظفر الدين
٢٣ — نحو مجتمع أفضل تأليف برتراند رسل
٢٤ — الإسلام والجنس تأليف فرويد
٢٥ — تاريخ طابع البريد تأليف يوجان فايبه
٢٦ — تاريخ الجيوش تأليف جورج كاستلان

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٦

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .
* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين فى نشرها .
* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .
* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .
* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادبا فى شتى الامم ، باتاحة الفرصة امام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ما عندهم .
* افساح المجال امام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والادب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والادبية .
* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .
* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .